اللغة العربية والانتماء

إعداد الأستاذ الدكتور

محمد موسى السعيد جباره

أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد
جامعة الأزهر

اللغة العربية والانتماء

محمد موسى السعيد جباره
قسم أصول اللغة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر، فرع ببورسعيد، مصر.
البريد الإلكتروني: MohammedGobara1958.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

إنّ الناظر إلى علاقة العرب – قديمًا – بلغتهم يجدها آية من آيات الحب الصادق، والاعتزاز بانتمائهم لها، وانتمائها لهم، فهي لغتهم التي دَرَجوا عليها، وفي تراثنا مرويَّاتٌ كثيرةٌ تدل على حبّ العرب – رجالًا ونساء – للغتهم، واعتزازهم بها، وهي نماذج تعطينا صورةً صادقةً عن مدى حُبِّ العربيّ – رجلًا كان أو امرأة – للغته، واعتزازه بها، وحرصه عليها، وملازمته لها، وأنه لا يَبْغِي بها بديلًا، وقد تعددت مظاهر الانتماء إلى اللغة العربية، من ذلك: الاعتزازُ باللهجات الخاصة، وتوحيدُ اللغة العربية فيما يُعرف باللغة العربية المشتركة، والاهتمامُ بجزالة الألفاظ، مع إصابة المعنى، والاهتمامُ بالشعر والشعراء، وجَعْلِهِمَا في مكانة مرموقة، وتنشئةُ الأبناء على حبّ اللغة وإجادتها، والرَّبْطُ بين اللغة العربية والدِّين الإسلام، والرَّبْطُ بينها وبين سلامة العقيدة الإسلامية، والعملُ على سلامتها من اللحن، والترغيبُ في تَعَلُّمها وتَعْلِيمها، والاحتجاجُ بما قِيلَ بها شِعْرًا ونثرًا في تفسير القرآن الكريم، وتعريبُ الدواوين، والتضحيةُ بالغالي والنَّفِيس من أجل جمعها. وقد اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي المعتمد على بعض المرويات التاريخية، والأحداث المتعلقة بموضوع البحث، ومن أهم النتائج: أنّنا ما زلنا في أمسّ الحاجة إلى الكشف عن طفولة اللغة العربية، لنتعرف على طبيعتها ونقف على أهم خصائصها في تلك

المرحلة. وأن اللغة العربية عندما وجدت من أبنائها انتماءً صادقًا، عَلَا شَأْنُهَا وشَأْنُهُمْ، وارتفعتْ مكانَتُها ومكانَتُهُم. وَاكَبَتِ اللُّغةُ العربيةُ ما جَدَّ بعد الإسلام من حضارة راقية، وما تَبِعَ ذلك من تدوين العلوم، وكان لهذا أسبابٌ عديدةٌ، منها ما يعود إلى الانتماء إلى اللغة العربية. الانتماءُ للدِّين، أو اللغة، أو الوطن، خُلُقٌ من أخلاق الإسلام الحميدة، التي يَنْبغي أنْ نتمسَّك بها، ونحافظ عليها.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، الانتماء، الفصحى، اللهجات، الشعر.

The Arabic Language and Identity

Mohammed Musa Al-Saeed Gobara, Department of Linguistics, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Female Students in Port Said, Al-Azhar University, Egypt.

Email: MohammedGobara1958.el@azhar.edu.eg

Abstract:

A look at the relationship between the Arabs and their language, in the past, reveals how much they sincerely loved, cherished and belonged to it. In our legacy, there are many narratives that prove that the Arabs, men and women, loved their language and cherished it. The manifestations of belonging to Arabic are diverse, including: pride in dialects, unification of the Arabic language in what is known as Standard Arabic, interest in eloquence while maintaining meaning, focus on poetry and poets, placing them in a prestigious position, nurturing children to love and master the language, linking the Arabic language with Islam, linking it with the integrity of Islamic creed, working on its integrity from linguistic distortion, encouraging learning and teaching it, quoting from both poetry and prose to interpret the Quran, arabicizing collections, and sparing no effort to preserve them. This research follows a descriptive approach based on some historical narratives and events related to the research topic. Some of the most important results are: we still need to uncover the infancy of the Arabic language to understand its nature, its identity, and its most important characteristics in that stage; when the speakers of Arabic adhered to it sincerely, its status and theirs rose; various reasons enabled

the Arabic language to cope with the significant civilization and new sciences that emerged after Islam, including belonging to the Arabic language; belonging to religion, language, or homeland is a virtue of noble Islamic ethics that we should adhere to and preserve.

Keywords: The Arabic language – Belonging - Standard Arabic – Dialects – Poetry.

المقدمة:

إنّ الناظر في العَلاقة بين اللغة العربية وبين أهلها يجد أنها عَلاقة متبادلة، بمعنى: أنهم يَعِزّون بعِزّتها، وتَعِزّ – هي كذلك – بعِزّتهم، فكلما قَوِيَ الانتماءُ للغة قويت اللغةُ وقوي أهْلُها، وإذا ضَعُفَ الانتماءُ ضَعُفَتِ اللغةُ وضَعُفَ أهْلُها(١)، ونجد مصداق ذلك من التاريخ، ففي العصر الجاهلي كان الانتماء للغة قويًّا، فأثمر ذلك لغةً قويةً ناهضةً، عَبَّرت عن حاجات أهلها، بل وجدنا غزارةً في مفرداتها، وفيما أنتجته قرائحُ الشعراء المبدعين في ذلك العصر، ولمَّا جاء الإسلامُ قَوِيَ الانتماءُ لها؛ لارتباطها بالدِّين الإسلاميّ، ونزول القرآن الكريم بها، وأضفى عليها النبيُّ ﷺ من بلاغته، وزادت نموًّا وتطورًا، فَعَلَا شأنُهَا، وارتفعت مكانتها، وواكبت ما جَدَّ بعد الإسلام، من حضارة رفيعة، فَعَلَا شأنُ الدولة الإسلامية، وحَرَصَ علماءُ الأمة على جَمْعها، والتقعيد لها، ودَفْعِ ما عساه أنْ يَشِينها، من اللحن والتصحيف، فبذلوا في سبيل ذلك جهودًا ستظل تشهد على حُبِّهم لها، وتفانيهم في الحفاظ عليها، (فاللغةُ هي الأساس في شعور الجماعة بانتماء بعضهم إلى بعض، واشتراكهم في نفس الذّكريات، سواء كانت تاريخيةً أوْ ثقافيةً، بلْ واقتصاديةً أيضًا)(٢).

وهذا البحث محاولةٌ موجزةٌ لرَصْد بعض مظاهر هذا الانتماء عبر تاريخ اللغة، ورَصْد بعض فوائده، وما حَدَثَ للغة العربية وأهْلِهَا الناطقين بها عندما ضَعُفَ هذا الانتماءُ، وفي الخاتمة سجلت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي المعتمد على بعض المرويات التاريخية، ومن ثَمَّ تتضح حدود البحث بأنها بعض المرويات التاريخية، والأحداث المتعلقة بموضوع البحث.

---

(١) قال ابن منظور: (والعِزَّةُ في الأصل: القُوَّةُ والشِّدَّةُ والغَلَبَةُ، والعِزّ والعِزَّةُ: الرِّفْعَةُ والامْتِناعُ). لسان العرب ٤/ ٢٩٢٥ (ع ز ز)، دار المعارف، مصر.

(٢) اللغة بين القومية والعالمية، د. إبراهيم أنيس، ص١٠٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠م.

وآمُلُ أن تكون هذه الكلماتُ الموجزةُ صيحةَ تحذيرٍ، وشَحْذًا للهمم، وتَنْبِيهًا للغيورين، وما أكثرهم! فالخيرُ كامِنٌ في هذه الأمة، ومُتَأَصِّلٌ فيها، بحمد الله تعالى.

والله أسأل التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

تعريف الانتماء

ذهب ابن فارس (ت٣٩٥) إلى أن (النّون والميم والحرف المعتلّ أصلٌ واحدٌ يدلّ على ارْتفاعٍ وزيادة)[١] من ذلك: (نَمَيْتُ الحديث إلى فلان نَمْيًا، إذا أسندتَه ورفعتَه، وكذلك نَمَيْتُ الرَّجلَ إلى أبيه نَمْيًا: نسبته إليه. وانْتَمى هو: انتسب)[٢].

وقال ابن منظور: (وَيُقَالُ: انْتَمَى فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ: إِذَا ارْتَفَعَ إِلَيْهِ فِي النَّسَبِ... وكلُّ ارتفاعٍ انْتِمَاءٌ. يُقَالُ: انْتَمَى فُلَانٌ فَوْقَ الوِسادة؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الجعدِي:

إِذَا انْتَمَيَا فَوْقَ الفِراشِ، عَلَاهُمَا تَضَوُّعُ رَيَّا رِيحِ مِسْكٍ وَعَنْبَرِ)[٣].

وأقصد بالانتماء إلى اللغة العربية: الفَخْرُ بالانتساب إليها، والاعتزازُ بها، والتَّمَسُّكُ بها نُطْقًا وكتابةً، ودَفْعُ ما عساه أنْ يَشِينَهَا؛ لما في ذلك مِنْ رَفْعٍ لمكانتها ومكانةِ النّاطقين بها.

عمر الشعر الجاهلي:

إنّ مما يؤسف له أننا لا نعرف شيئًا عن طفولة اللغة العربية، حيث إن أقدم ما وصلنا منها إنما يتمثل فيما وصلنا من الشعر الجاهلي، وقد جاءنا -كما هو معلوم - بلغة تتسم بجزالة الألفاظ، وعمق المعاني ودقتها، ويرى الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في أحد قوليه أن ما وصلنا من الشعر الجاهلي إنما يعود إلى ما

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس ٥/ ٤٧٩ (ن م ى)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(٢) تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري ٦/ ٢٥١٥ (ن م ا)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت. لسان العرب، لابن منظور ٦/ ٤٥٥٢ (ن م ى).

(٣) لسان العرب ٦/ ٤٥٥٢ (ن م ى). والبيت في: ديوان النابغة الجعدي، ص٩٦، جمعه وحققه وشرحه الدكتور/ واضح الصمد، ط١، ١٩٩٨م، دار صادر، بيروت. وقال المحقق: تَضَوَّع: انتشر وفاح. الرَّيَّا: الرائحة الطيبة.

قبل الإسلام بنحو قرن ونصف أو قرنين من الزمان، وذلك في قوله: (فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائةَ عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام)[١].

أما القول الآخر فيذكر فيه أن الشعر الجاهلي يعود إلى ما قبل الإسلام بنحو قرنين ونصف، حيث يقول: (وقد قيل الشِّعْرُ قبل الإسلام في مقدارٍ من الدهر أطْوَلَ مما بيننا اليومَ وبين أوَّل الإسلام)[٢].

وذهب أحد الباحثين المـُحْدَثين إلى أن عمر الشعر الجاهلي يعود إلى أربعة قرون قبل الإسلام، مستشهدًا بنماذج لشعراء جاهليين عاشوا في هذه الفترة المشار إليها، فيقول: (إن بين أيدينا نصوصًا من الشعر الجاهلي المـُرَجَّحة صحته ترقى إلى ما قبل الإسلام بأربعمائة عام)[٣].

واستدل بعدة أدلة تؤيد مذهبه، وهي[٤]:

أولاً: أن علماء تراثيين قُدامى، كابن سلّام وغيره، ذكروا في آثارهم أسماء شعراء، ونماذج من الشعر القديم ترقى إلى القرن الثالث الميلادي؛ لذا عثر الباحث على أبيات لشعراء جاهليين وُجِدوا في القرن الثالث الميلاديّ، أمثال: جَذِيمة الأبرش (ت٢٦٨م)، وابن أخته عمرو بن عديّ، وغريم هذا الأخير: عَمْرو بن عبد الجنّ التَّنُوخي[٥]، والثقة بأشعار هؤلاء وغيرهم تجعل عُمْرَ الشعر الجاهلي المعروف اليوم يزيد مائة عام عما حدَّده له الجاحظ من زمن).

---

(١) الحيوان، للجاحظ ١/ ٧٤ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، تقديم أ.د. أحمد فؤاد باشا، سلسلة الذخائر (٧٤)، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

(٢) الحيوان ٦/ ٢٧٧.

(٣) الشعراء الجاهليون الأوائل، د. عادل الفريجات، ص٤٧، ط٢، ٢٠٠٨م، دار المشرق، بيروت. وينظر التعريف بحياة الشعراء الثلاثة، وما عثر المؤلف عليه من شعرهم: المرجع نفسه ص١٣٩ : ١٦٥.

(٤) ينظر: الشعراء الجاهليون الأوائل ص٤٧ : ٥٠.

(٥) ينظر التعريف بهؤلاء الشعراء وما بقي من شعرهم: السابق نفسه ص١٣٩ : ١٦٥.

ثانيًا: أن القرن الثالث الذي اتخذه الباحث مُنْطَلَقًا لظهور الشعر الجاهلي، المستكمل أسباب نضجه وتكامله، هو القرن الذي شهد تأسيس دولة المناذرة في الحيرة، حيث كانت الحيرة الوسط الثقافيّ الأَلْمَع في العصر الجاهلي؛ كما نُسِب إلى ملوكها المتأخرين رعاية فائقة لشعراء العربية؛ لذا وَفَدَ إليها كثير من شعراء الجاهلية، منهم: المُرقِّش الأصغر، والمُرقِّش الأكبر، وعَمْرو بن قَمِيئَة، والمُتلَمِّس، وطَرَفة بن العَبْد وغيرهم ممن ذكرهم الباحث.

ثالثًا: اعتماد الرواية الشفويّة نَهْجًا أساسيًّا لنقل الشعر الجاهلي، وحَمْله من جيلٍ إلى جيل، حيث عجزت الرواية الشفوية عن حَمْل إبداع العرب القدماء الذين عاشوا قبل القرن الثالث الميلادي، وليست هذه الحالة خاصة بالشعر العربي وحده، بل تنطبق على غيره من آداب الأمم الأخرى المنقولة شفاهًا.

وبالنظر في هذه الأدلة يتبين لنا مدى قربها من الصواب، ونرى أن الدليل الأول أقواها على الإقناع بما ذهب إليه الباحث.

ولعل رَأْيَ الشيخ محمود محمد شاكر كان قريبًا من هذا الرأي، حيث عَلَّقَ على قول محمد بن سَلّام الجُمَحِيّ (ت٢٣١هـ): (ولَم يكن لأوائل الْعَرَب من الشّعْر إِلَّا الأبياتُ يَقُولهَا الرجل في حَاجته، وَإِنَّمَا قُصِّدَتِ القصائدُ وَطُوِّلَ الشّعْرُ على عهد عبد المُطَّلب، وهَاشِم بن عبد مَنَاف)، بقوله: (هكذا يرى ابْنُ سَلّام وغَيْرُه من المتقدّمين، وهو عندي باطلٌ، فالشِّعْرُ أَقْدَمُ مما يَزْعم، وطَوِيلُه أَعْتَقُ مما يَتَوَهَّم)[1].

وعلى العموم فما زلنا لا نعلم شيئًا عن طفولة اللغة العربية، والأطوار التي مرت بها حتى صارت على هذه الحالة التي هي عليها من النضج والاكتمال، كما تدل جميع النصوص التي وصلتنا منذ العصر الجاهلي.

---

(١) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سَلّام الجُمَحِيّ ٢٦/١، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة. وتعليق الشيخ شاكر في الهامش رقم: (٤).

مظاهر الانتماء إلى اللغة العربية

للانتماء إلى اللغة العربية مظاهر عديدة، منها:

١- الاعتزاز باللهجات الخاصة:

والذي يهمنا في مقامنا هذا بيان مدى اعتزاز العرب- قبل الإسلام وبعده - بلغتهم، حتى مَثَّلَ ذلك آيةً من آيات الانتماء، وبالنظر في تراثنا العربي نجد كثيرًا من الأمثلة التي تدل على حب العرب- رجالًا ونساء - للغتهم، واعتزازهم بها، حتى إن ذلك انعكس بشكل واضح على لهجاتهم الخاصة، من ذلك:

- ما رواه اللحياني قال: قلت لأعرابي: أتقول مثل حَنَكِ الغراب أوْ حَلَكِهِ؟ فقال: لا أقول مثل حَلَكه(١).
- (قال أبو حاتم: قلت لأم الهَيْثَم: كيف تقولين أَشَدُّ سوادًا من مَاذَا؟ قَالَت: مِنْ حَلَك الغُرَاب. قلت: أتقولينها من حَنَك الغُرَاب؟ فَقَالَت: لَا أقولها أبدًا)(٢).

فرغم انتماء اللهجتين إلى لغة واحدة وجدنا كلًّا من الأعرابي، وأم الهيثم يعتز بلهجته، ويرفض أن يتركها وينطق بغيرها، حتى ولو كان الاختلاف الحاصل بينهما في حرف واحد، ومثل هذين المثالين ما رُوي عن الأصمعي قال: اختلف رجلان في الصَّقْر، فقال أحدهما: الصَّقْر "بالصاد"، وقال الآخر: السَّقْر "بالسين"، فتراضَيَا بأوَّل وَارِدٍ عليهما فحَكَيَا له ما هُمَا فيه. فقال: لا أقول كما قلتما، إنما هو الزَّقْر(٣).

---

(١)الأمالي، لأبي علي القالي ٢/ ٥٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م. وينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي ١/ ٤٧٥، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت. دار الفكر.

(٢) جمهرة اللغة، لابن دريد ١/ ٥٦٣ (ح ل ك)، تحقيق: د. رمزي منير بعلبكي، ط١، ١٩٨٧م، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. وينظر: المزهر ١/ ٤٧٥.

(٣) الخصائص، لابن جني ١/ ٣٧٥، تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، الهيئة المصرية العامة للكتاب. وينظر: المزهر ١/ ٤٧٥.

فكُلٌّ واحد من الرَّجُلَيْن اعْتَزَّ بلغته، ووصل بهما الأمر إلى انتظار ثالث يحكم بينهما، وكانت المفاجأة أنّ لهجة الحَكَم تختلف عن لَهْجَتَيْهِمَا في نُطْق اللفظ محلّ الخلاف.

بل إن ابن جني (ت٣٩٢هـ) نقل إلينا هذه الرواية التي ذكرها أبو حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ) في كتابه الكبير في القراءات قال: قرأ عَلَيَّ أعرابيٌّ بالحرم: "طِيبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب"(١) فقلت: طُوبَى، فقال: طِيبَى، فأعدْتُ فقلتُ: طُوبَى، فقال: طِيبَى، فلمّا طال عَلَيَّ قلتُ: طُو طُو، قال: طِي طِي.

وعلَّق ابن جني على هذه الرواية بقوله: أفلا ترى إلى هذا الأعرابيّ، وأنت تعتقده جافيًا كزًّا، لا دَمِثًا ولا طَيِّعًا، كيف نَبَا طَبْعُهُ عن ثقل الواو إلى الياء فلم يُؤَثِّر فيه التلقينُ، ولا ثَنَى طَبْعَهُ عن التماس الخفَّة هَزٌّ ولا تمرين(٢).

وقال في موطن آخر – مُشِيرًا إلى اعتزاز هذا الأعرابي بلهجته، وأنه لا يَبْغِي بها بديلًا –: (أفَلا ترى إلى اسْتعصام هذا الأعرابيّ بلغته، وتركه متابعة أبي حاتم؟!)(٣).

وروى أبو الطيب اللغوي أن أبا محمد اليزيدي قال: جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء إلى أبي عمرو فقال: يا أبا عمرو، ما شَيْءٌ بلغني أنَّكَ تُجيزه؟ قال: وما هو، قال: بلغني أنك تجيز ليس الطِّيبُ إلا المسكُ – بالرفع –، قال: فقال أبو عمرو: نِمْتَ يا أبا عُمَرَ، وأَدْلَجَ النّاسُ! ليس في الأرض حجازيٌّ إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميميٌّ إلا وهو يرفع.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

(٢) الخصائص ١/ ٧٦، ٧٧. (دَمِثَ دَمَثًا، فَهُوَ دَمِثٌ: لانَ وسَهُلَ. والدَّماثَةُ: سُهولةُ الخُلُق... ورجلٌ دَمِثٌ بَيِّنُ الدَّمَاثةِ والدُّمُوثَةِ: وَطِيءُ الخُلُق). لسان العرب ٢/ ١٤١٨ (د م ث).

(٣) الخصائص ١/ ٣٨٥.

قال أبو محمد: ثم قال أبو عمرو: تعال يا يحيى وتعال أنت يا خَلَف – لخلف الأحمر– اذهبا إلى أبي المهديّ[١] فَلَقِّنَاهُ الرَّفْعَ، فإنه لا يَرْفع، واذهبا إلى المُنْتَجَع التميميّ فَلَقِّنَاهُ النَّصْبَ فإنّه لا يَنْصِب، قال: فذهبتُ أنا وخلف فأتينا أبا المهديّ، فإذا هو يصلي – وكان به عارض وإذا هو يقول في الصلاة: اخْسَأْنَانِّ عَنِّي، قال: ثم قَضَى صلاته وانْفَتَلَ إلينا، فقال: ماخطبكما؟ قلنا: جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب، فقال: هاتيا، فقال له خَلَف: تقول: (ليس الطِّيبُ إلا المِسْكُ)؟ فقال: أتأمرانني بالكذب على كبرة السِّنّ! فأين الجَادِيُّ! وأين كذا وكذا! فقال له خلف: ليس الشَّرَابُ إلا العَسَلُ. قال: فما تصنع سُودَانُ هَجَر؟ ما بعمان شَرَابٌ إلا هذا التمر.

قال أبو محمد: فلما رأيتُ ذلك منه قلتُ له: ليس مِلاكُ الأَمْرِ إلا طاعةُ الله، والعَمَلُ بها، فرفعتُ، فقال: هذا كلامٌ لا دَخَلَ فيه، ثم قال: ليس مِلاكُ الأَمْرِ إلا طاعةَ الله والعَمَلَ بها، فَنَصَبَ، قال أبو محمد: فقلتُ له: ليس مِلاكُ الأَمْرِ إلا طاعةُ الله والعَمَلُ بها، فرفعْتُ. فقال: ليس هذا من لَحْنِي ولا لَحْن قَوْمي، قال: فكتبنا منه ما سمعنا... ثمّ أتينا المُنْتَجَع، فأتينا رجلًا يَعْقِلُ، فقال له خَلَف: ليس الطيب إلا المسْكُ. قال: فرفع. قال: فَلَقَّنَّاه النَّصْبَ وجَهِدْنا به في ذلك فلمْ يَنْصِبْ، وأَبَى إلا الرَّفْع. قال: فأتينا أبا عَمْرو فأَعْلَمْنَاهُ، وعنده عيسى بْنُ عُمَرَ لم يَبْرَح. قال: فأخرج عيسى بْنُ عُمَرَ خاتمه من يَدِهِ، فقال: لك الخاتم، بهذا والله فُقْتَ النَّاسَ)[٢].

---

(١) وكان حجازيا باهليّا، كما ذكر القفطي. ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي ٤/ ١٣٧، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٢م، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الزبيدي، ص٤٣، ٤٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، الناشر: دار المعارف، مصر. وينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي ٤/ ١٣٦: ١٣٨.

وذكر الدكتور صبحي الصالح هذه الرواية، ثم عَلَّقَ عليها قائلًا: (وإنَّ أقَلَّ ما ترمز إليه هذه القصة – سواء أصَوَّرَت حقيقةَ ما حَدَثَ، أمْ لَخَّصَت الصّراع اللغويّ بين النحاة – أنَّ لكلّ قبيلة عربية لَحْنًا خاصًّا لا تستطيع سواه، ويَسْتحيل تَلْقِينَهَا غَيْرُهُ؛ لأنَّ ألسنتها لا تَجْري إلّا به)[1].

فهذه النماذج – وغيرها – تعطينا صورة صادقة عن حُبِّ العربيّ – رجلًا كان أو امرأة – للغته، واعتزازه بها، وحرصه عليها، وملازمته لها، وأنه لا يبغي بها بديلًا.

٢– توحيد اللغة العربية فيما يُعرف باللغة العربية المشتركة:

ومن الأهمية بمكان أن نقول: إن هذه النماذج – السابق ذكرها – لا تعني أنه لم تكن للعرب لغةٌ مشتركة يتخاطبون بها فيما بينهم، ويقرضون بها شعرهم، لكنها نماذج تدل على الحُبِّ الصادق للعربية، فواقع العرب يشهد بأنهم عملوا على تقوية لغتهم، ومن ذلك أنهم حرصوا على توحيدها، وذلك عن طريق الاهتمام بها في أسواقهم، كما كان الحال في أسواق: عكاظ، والمجنة، وذي المجاز وغيرها من أسواق العرب، فلم تكن هذه الأسواق للبيع والشراء فقط، وإنما كان للغة فيها نصيب وافر، حيث (كانت تُعْقد المساجلات والمفاخرات بين الشعراء والخطباء في تلك الأسواق، التي يمكن أنْ تُدْعَى بحقٍّ المؤتمرات الثقافية للعرب القدماء)[2].

فَسُوقُ عكاظ – على سبيل المثال – كانت بمثابة (مجمع أدبيّ لغويّ رسميّ، له مُحَكِّمون تُضْرب عليهم القِبابُ، فَيَعْرض شعراءُ كلِّ قبيلة عليهم شعْرَهم

(١) دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ص٧٦، ط١٢، ١٩٨٩م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

(٢) دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، ص١٩٢، ط ٥، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة. وينظر: اللغة بين القومية والعالمية، د. إبراهيم أنيس، ص١٧٥.

وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيّد، وما بهرجوه فهو الزائف، وحول هذه القباب الرواةُ والشعراءُ من عامة الأقطار العربية، فما ينطق الحَكَمُ بِحُكْمِهِ حتى يتناقل أولئك الرواةُ القصيدةَ الفائزةَ فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها، وتلهج بها الألسن في البوادي والحواضر)[١].

فقد أتاحت سوق عكاظ مجالًا خِصْبًا للشعراء كي يتنافسوا فيما بينهم، وكان النابغةُ الذبيانيُّ الحَكَمَ بينهم، فكانت تُضْرَبُ له قُبَّةٌ من أَدَم بسوق عكاظ؛ يجتمع إليه فيها الشعراء، ونَقْدُهُ حَسَّانَ بن ثابت معلومٌ مشهورٌ[٢].

---

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغاني، ص٢٤٢، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.

(٢) دخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى قد أنشده شعره وحكم له، ثم أنشدته الخنساء قولها:

قَذًى بِعَيْنِـــــكَ أَمْ بالعَيْنِ عُــوَّارُ .....

حتى انتهتْ إلى قولها:

وإنَّ صَخْــرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِـــــــهِ كَأَنَّهُ عَلَـــــمٌ في رَأْسِهِ نَـــارُ

وإنَّ صَـــخْرًا لَمَوْلانا وسَـــيِّدُنـا وإنَّ صَـــــخْرًا إذا نَشْتُو لَنَحّارُ

فقال (أي: النابغة): لولا أن أبا بَصِيرٍ (كنية الأعشى) أنشدني قبلكِ لقلتُ: إنَّكِ أَشْعَرُ الناس، أنتِ والله أشعر من كلِّ ذاتِ مَثانة، قالت: "والله، ومن كلِّ ذي خُصْيتين".

فقال حسان: "أنا والله أشعر منكَ ومنها" قال: "حيث تقول ماذا؟ " قال: حيث أقول:

لَنَا الجَفَنَـــــــاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأسيافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمـــــا

ولَدْنَـــا بَنِي العَنْقَـــــاءِ وَابْنَيْ مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنَا خالًا وَأَكْرِمْ بِنَا ابْنَمـــا

فقال (أي: النابغة): إنك لشاعر لولا أنَّكَ قَلَّلْتَ عَدَدَ جِفانكَ، وفَخَرْتَ بمنْ وَلَدْتَ ولم تَفْخر بمن وَلَدَكَ!

وفي رواية أخرى: إنك قلت: "الجَفَنات" فقَلَّلْتَ العَدَدَ، ولو قلتَ: "الجِفان" لكان أكثر، وقلتَ: "يلمعن في الضُّحى" ولو قلتَ: "يَبْرُقْن بالدُّجَى" لكان أبلغ في المديح؛ لأن الضيف بالليل أكثر طُروقًا، وقلتَ: "يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَما" فَدَلَلْتَ على قِلَّة القتل، ولو قلتَ: يَجْرِينَ لكان أكثرَ لانْصِباب الدَّم، وفَخَرْتَ بمن وَلَدْتَ ولم تفخر بمن وَلَدَكَ. فقام حسان مُنْكسرًا مُنْقطعًا. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ٩/ ٢٥١، ٢٥٢، تحقيق د. إحسان عباس، د. إبراهيم السعافين، بكر عباس، ط٣، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، دار صادر، بيروت.

ولم ينفرد الشِّعْر بهذه السُّوق، بل شاركه النثر، فخطبة قُسِّ بن ساعدة في سوق عكاظ مشهورة معلومة كذلك(١).

وعلى ذلك فقد كان الحفاظُ على اللغة العربية، والعملُ على تنميتها وتوحيدها هدفًا رئيسًا من أهداف هذه السُّوق، ففيها كانت تجتمع القبائل من شتى أنحاء الجزيرة العربية، ولهجاتهم شتَّى، لكن سوق عكاظ – وغيرها من أسواق العرب – كانت تجمعهم على اللغة المشتركة فيما بينهم، والتي يُطلق عليها اسم: الفصحى، فقد كان (يَحْمِلُ إلى هذه السُّوق التِّهاميُّ والحجازيُّ والنَّجْديُّ والعراقيُّ واليماميُّ واليمنيُّ والعُمانيُّ، كُلُّ ألفاظَ حَيِّهِ ولغةَ قُطْره، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نَخْلًا واصْطفاءً حتى يتبقى الأنسبُ الأرشقُ، ويُطْرح المـَجْفُوُّ الثّقيل)(٢).

ويذهب الدكتور إبراهيم أنيس إلى (أن طالبي الثقافة [اللغوية] من العرب القدماء كان عليهم أن يشهدوا الأسواق والمحافل بأنفسهم، وأن يتجشموا في ذلك من التنقل والأسفار ما لم يكم في وُسْع كلٍّ منهم)(٣).

---

(١) وهي قوله: (أَيُّهَا النَّاسُ! اسْمَعُوا وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَات، وَمَنْ مَاتَ فَات، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آت، لَيْلٌ دَاج، وَنَهَارٌ سَاج، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاج، وَنُجُومٌ تَزْهَر، وَبِحَارٌ تَزْخَر، وجبالٌ مُرْساه، وأَرْضٌ مُدْحاه، وأنهارٌ مُجْراه، إنّ في السَّماء لَخَبَرا، وإنّ في الأرض لَعِبَرا، ما بَالُ النَّاسِ يَذْهبُون ولا يَرْجِعُون! أَرَضُوا فَأَقَامُوا! أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا! يُقْسِم قُسٌّ بالله قَسَمًا لا إثم فيه إن لله دينًا هو أرضَى له، وأفضلُ من دينكم الذى أنتم عليه؛ إنكم لتأتون من الأمر مُنْكَرا). صبح الأعشى، للقلقشندي ١/ ٢١٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية)،٢٠٠٤م/ ٢٠٠٥م. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ١٥/ ١٦٤، ١٦٥، البيان والتبيين، للجاحظ ٣٠٨/١، ٣٠٩، العقد الفريد، لابن عبد ربه ٤/ ١٢٨ مع اختلاف في الرواية بالزيادة والنقص.

(٢) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢٤٢.

(٣) دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، ص١٩٤. وما بين المعقوفين زيادة للإيضاح.

وقد عملت هذه الأسواق وغيرها على جمع العرب على لغة مشتركة فيما بينهم، بها يتخاطبون، وبها يَقْرِضون شِعْرَهم، وإليها يَنْتسبون، وأصبح لها (كيانٌ مستقلٌّ، فلا تُذَكِّرُنا في أثناء الحديث بها أو سماعها بمنطقة خاصة، أو طبقة خاصة، بل يشعر كُلٌّ من السامع والمتكلم أنها مِلْكُ الجميع، وأمُّ الجميع، لا يَدَّعيها لأنفسهم قومٌ بأعينهم، ولا تُنسب إلى بيئة مُعَيّنة، وهي – لذلك – تَكْتسب الاحترامَ من الناس جميعًا، فلا يسخر منها أحدٌ، ولا يَنْقُدُها أحدٌ)[١].

وكذلك كان لما اعتادته العرب من الحج إلى البيت الحرام بمكة، ورحلتي الشتاء والصيف، وغيرهما أثر كبير في توحيد اللغة العربية قبل الإسلام (فإذا كان ثمة اختلافٌ بين شاعر وآخر في الاستخدام اللغوي فهو اختلاف في إطار اللغة الواحدة، هو اختلافٌ فرديٌّ في إطار المستوى اللغوي الواحد، لقد شارك في تأليف هذا الشعر شعراء ينتمون إلى قبائل شمالية مختلفة، كما نظمه شعراء ينتمون إلى قبائل من أصل عربيّ جنوبيّ، كانت قد هاجرت إلى الشّمال، وتعربت بعربية الشّمال قبل الإسلام، ومن أشهر هؤلاء: امرؤ القيس، وقبيلته كندة ذات الأصل الجنوبي، لقد كانت هذه اللغة المشتركة وسيلة للتعبير الأدبيّ عند هؤلاء جميعًا، تجاوزت اللهجة القبلية المحلية لتصبح بذلك المستوى اللغويّ الذي تلتقي حوله القبائل المختلفة)[٢].

٣- الاهتمام بجزالة الألفاظ، مع إصابة المعنى:

فها هو الجاحظ يُثْني على الكلام الفصيح، فيقول: (ليس في الأرض كلامٌ هو أمْتَع ولا آنقُ، ولا ألذُّ في الأسماعِ، ولا أشدُّ اتصالًا بالعقول السليمة، ولا أفْتق

(١) اللغة بين القومية والعالمية، د. إبراهيم أنيس، ص١٠٤.

(٢) اللغة العربية عبر القرون، د. محمود فهمي حجازي، ص٤٣، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهر، ١٩٧٨م.

لِلّسان، ولا أجْوَدُ تقويمًا للبيان، مِنْ طُولِ استماعِ حديثِ الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء)[١].

ويقرر الجاحظ – كذلك – أنّ (أَوْضَحَ ما يُعَدُّ في المحصول للعرب من الفضل، فصاحَتُهَا وحُسْنُ مَنْطِقِهَا)[٢].

فجزالة الألفاظ، وإصابة المعنى، تَسْبي المستمع، وتملأ عليه جوانحه، وتستميل قَلْبَه، كما تستولي على عقله، ولنتـأمل في هذه الأبيات التي قالها أعرابيٌّ يشكو بها حبيبته[٣]:

شَكَوْتُ! فقالتْ: كُلُّ هـذا تَبَرُّمًـا بِحُبِّي! أراحَ اللهُ قَلْبَـكَ مِنْ حُبِّي
فَلَمَّا كَتَمْتُ الحُبَّ قالتْ: لَشَدَّ مَـا صَبَرْتَ! وما هذا بِفِعْلِ شَجِيِّ القَلْبِ!
وَأَدْنُو فَتُقْصِيني، فَأَبْـعُدُ طالِبًا رِضَـاها، فَتَعْتَدُّ التَّباعُـدَ مِـنْ ذَنْبِي
فَشَكْوايَ تُؤْذِيها، وَصَبْرِي يَسُوءُها وَتَجْزَعُ مِـنْ بُعْدِي، وَتَنْفِرُ مِنْ قُرْبِي
فَيَا قَوْمُ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْرِفُونَـها؟ أَشِيرُوا بها واسْتَوْجِبُوا الشُّكْرَ مِنْ رَبِّي

٤– الاهتمام بالشعر والشعراء، وجعلهما في مكانة مرموقة:

ومما يُبْرز دور اللغة العربية المشتركة في تنمية الانتماء عند العرب، أنّ الشاعر كان يَحْظَى بالمرتبة العُلْيا بين أبناء قبيلته، فهو المدافع عن أحسابها وأنسابها، فعن طريق شعره تنتشر مآثرُ القبيلةِ ومفاخرُها بين العرب، يقول ابن سَلّام الجُمَحِيّ: (وكان الشِّعْرُ في الجاهلية عند العرب ديوانَ عِلْمهم، ومُنْتَهَى حُكْمهم، به يأخذون، وإليه يَصِيرون)[٤].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٤٥.
(٢) رسائل الجاحظ، ٢٣٧/٤، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
(٣) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد ١/ ٢٢٧، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، دار الفكر العربي، القاهرة. العقد الفريد ٣/ ٤٦٢، ٤٦٣.
(٤) طبقات فحول الشعراء ٢٤/١.

يقول الجاحظ: (فكل أمة تعتمد في استيفاء[١] مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال. وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها)[٢].

وذهب ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) إلى أن الله – تعالى – أقام الشِّعْر للعرب (مُقام الكِتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعًا، ولآدابها حافظًا، ولأنسابها مُقَيِّدًا، ولأخبارها ديوانًا لا يَرِثُّ على الدَّهر، ولا يَبِيد على مَرِّ الزّمان)[٣]؛ لذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه–: (كان الشِّعْرُ عِلْمَ قومٍ لم يكنْ لهم عِلمٌ أصَحُّ مِنْهُ)[٤]، ويقول أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ): (لا نعرف أنسابَ العرب وتواريخَها وأيامَها ووقائعَها إلا من جملة أشعارها؛ فالشِّعْر ديوان العرب، وخزانةُ حِكْمَتِها)[٥].

ولما قام عمرو بن كلثوم بمعلقته خطيبًا بسوق عكاظ، وقام بها – كذلك – في موسم مكة – هذه المعلقة التي تُعَدُّ من أجود القصائد العربية، وفيها عَدَّدَ الشاعرُ مفاخرَ قومه التَّغْلِبِيِّين، ودافع عن حقوقهم، ورَدَّ مزاعم أعدائهم – عَظَّمها بنو تغلب، ورواها صغارُهم وكبارُهم، حتى هُجُوا بذلك، فقال بعض شعراء بكر بن وائل[٦]:

---

(١) كذا بالأصل، ولعل الأولى: استبقاء، بالباء الموحدة، بعدها قاف.

(٢) الحيوان، للجاحظ ١/ ٧١، ٧٢.

(٣) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص١٧، ١٨، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٢، ١٣٩٢هـ ١٩٧٣م، دار التراث ، القاهرة.

(٤) طبقات فحول الشعراء ٢٤/١.

(٥) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص١٣٨، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

(٦) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، ١١/ ٣٦، ٣٧، شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص٢١٣، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، دار احياء التراث العربي.

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبَ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصِيْدَةٌ قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومِ

يَرْوُونَهَا أَبَدًا مُـذْ كَانَ أَوَّلُهـمْ يَا لَلرِّجَـالِ لِشِعْرٍ غَيْرِ مَسْئُومِ

ولا يقتصر الأمر بالطبع على أبناء القبيلة، فقد كان الشاعر يقول قصيدته فتنتشر في أرجاء شبه الجزيرة العربية، ويسمع بها القاصي والداني، وقد عَبَّر عن ذلك المـُسَيَّبُ بن عَلَس عندما مدح القَعْقاع بن مَعْبَد بن زُرَارة، سَيِّد بني تميم بقوله(١):

فَلَأُهْدِيَنَّ مَعَ الرِّياحِ قَصِيـــدةً مِنِّي مُغَلْغَلَةً إلى القَعْقَـــاعِ(٢)

تَرِدُ المياهَ فَمَـا تَزالُ غَرِيبـةً في القوم بينَ تَمثُّلٍ وسَمَـاعِ

فقد كان للكلمة أثر كبير عند العرب، لا سيما إذا كانت شعرًا؛ لذا (عَظُم الشِّعْرُ، وتُهُيِّبَ أهلُه؛ خوفًا من بَيْتٍ سائر تُحْدَى به الإبلُ، أو لفظةٍ شاردةٍ يُضْرَب بها المثلُ)(٣).

ويذكر الجاحظ أن العرب (كانوا يَمدحون شدَّةَ العارضة، وقوّةَ المُنَّة، وظهورَ الحُجَّة، وثباتَ الجَنَان، وكثرةَ الرِّيق، والعُلُوَّ على الخَصْم، ويَهْجُون بخلاف ذلك)(٤).

---

(١) شعر المسيب بن علس، ص١١٤، جمعه وحققه ودرسه الدكتور أنور أبو سويلم، منشورات جامعة مؤتة ١٩٩٤م. وقال المحقق (هامش رقم: ٨): أي أن هذه القصيدة تُبْعِد في الذَّهاب وتخرج من قوم إلى قوم، ويحملها آخرون، فلا يزال يتمثل بها الناس، ويتغنَّى بها المغنُّون، غريبة لا تستقر في مكان؛ لأنها تُحْمل مع الركبان وتسير دومًا.

(٢) قال ابن منظور: (والمـُغَلْغَلة: الرِّسالة . ورِسالة مُغَلْغَلة: محمولة من بلدٍ إلى بلد، وأَنشد ابن بري: أَبْلِغْ أَبا مالكٍ عنِّي مُغَلْغَلَةً وفي العِتاب حَياةٌ بَيْنَ أَقْوام . وفي حديث ابن ذي يَزَن: مُغَلْغَلةٌ مَغالقُها تُغَالي إلى صَنْعاءَ من فَجٍّ عَمِيق . المـُغَلْغَلة – بفتح الغينين –: الرِّسالة المحمولة من بلدٍ إلى بلد . وبكسر الغين الثانية: المـُسْرِعة، من الغَلْغَلةِ: سُرْعة السَّيْر). لسان العرب ٥/ ٣٢٨٩ (غ ل ل).

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق ١/ ٤٨، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، دار الجيل، بيروت.

(٤) البيان والتبيين ١/ ١٧٦.

ومن هنا نفهم شدة عناية العرب بشعرائها، حيث (كانت القبيلة من العرب إذا نَبَغَ فيها شاعرٌ أتت القبائلُ فهنأتها، وصُنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبْنَ بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حمايةٌ لأعراضهم، وذَبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادةٌ بذكرهم، وكانوا لا يُهَنِّئون إلا بغلام يولد، أو شاعر يَنْبُغ فيهم، أو فرس تُنْتِج)[١].

ولعل هذا يوضح لنا مقولة أبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ): (كانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم)[٢].

وقد اهتمت العرب بشعر شعرائها، فكان منهم رواة، عُنُوا بحفظ الشعر ونقله بين قبائل العرب، يقول أبو حاتم الرازي (ت٣٢٢هـ): (وحَفِظَ الرُّوَاةُ عنهم كثيرًا من ذلك الشّعر ودَوَّنوه، ورواه السَّلَفُ للخَلَف، وعرفوا اختلاف لغات القبائل، واصطلح أهْلُ المعرفة على صحة أصول اللغة فيه، فرغب في تعلمه أهْلُ الهمم، وصار ديوانًا لهم في الجاهلية، عليه يَعْتمدون، وبه يَحْكُمون، وبحُكْمه يرتضون، حتى صار الشعراءُ فيهم بمنزلة الحُكَّام؛ يقولون فَيُرْضَى قولُهُم، ويَحْكُمون فَيَمْضِي حُكْمُهُم، وصار ذلك فيهم سُنَّةً يُقْتَدَى بها، وأَثَارَةً يُحْتَذَى عليها)[٣].

ويقول عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) عن الشعر: (هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يُشَكُّ أنه كان ميدانَ القوم إذا تَجَارَوْا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قَصَبَ الرِّهان)[٤].

---

(١) العمدة، لابن رشيق ١/ ٦٥.

(٢) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازي ١/ ٩٥، تحقيق : حسين بن فيض الله الهمداني، مطابع دار الكتاب العربي، ١٩٥٧م.

(٣) الزينة ١/ ٩٢.

(٤) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، ص٨، ٩، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ط٥، ٢٠٠٤م، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.

ويشير يونس بن حبيب (ت١٨٣هـ) إلى اهتمام العرب بلغتهم، فيقول: (ليس في بني أسد إلا خطيبٌ، أو شاعرٌ، أو قائف، أو زاجر، أو كاهن، أو فارس. قال: وليس في هذيل إلا شاعر، أو رامٍ، أو شديد العَدْو)[١].

وفي العصر الأمويّ عادت صورةٌ من أرْوَع ما أَلِفْناه قبل الإسلام في أسواق العرب، التي كانت بمثابة مؤتمرات ثقافية، فأقاموا بالبصرة سوق "المِرْبَد"[٢] يتنافس فيها الشعراء بإنشاد روائع القصائد، وتُدَوِّي[٣] في جنباتها أصواتُ الخطباء المُفَوَّهين)[٤].

وأشار ياقوت الحموي إلى الأهمية الثقافية لسوق المِرْبَد فقال: (ومربد البصرة من أشهر محالّها، وكان يكون سوقُ الإبل فيه قديمًا، ثم صار محلةً عظيمةَ سَكَنَهَا النّاسُ، وبه كانت مفاخراتُ الشعراء، ومجالسُ الخطباء)[٥].

ويقول القلقشنديُّ (ت٨٢١هـ): (وبالبصرة مَحَلَّةٌ يُقال لها: المِرْبَد- بكسر الميم وسكون الراء المهملة وفتح الباء الموحدة ثم دال مهملة- وهي مَحَلَّةٌ

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٧٤.

(٢) قال ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ): (المِرْبَدُ: بالكسر ثم السكون، وفتح الباء الموحدة، ودال مهملة: وهذا اسم موضع... قال الأصمعي: المِرْبَد كلُّ شيء حُبِسَتْ فيه الإبل؛ ولهذا قيل: مِرْبَد النَّعَم بالمدينة وبه سُمِّيَ مِرْبَد البصرة، وإنما كان موضعَ سوق الإبل، وكذلك كلُّ ما كان من غير هذا الموضع – أيضا – إذا حبست فيه الإبل). معجم البلدان، لياقوت الحموي ٥/ ٩٧، ٩٨، ط٢، ١٩٩٥م، دار صادر، بيروت.

(٣) قال ابن منظور: (والدَّوِيُّ: الصَّوت، وخَصَّ بعضهم به صوت الرَّعد، وقد دَوَّى. التَّهذيب: وقد دَوَّى الصوتُ يُدَوِّي تَدْوِيَةً. ودَوِيُّ الرّيح: حَفِيفُها، وكذلك دَوِيُّ النَّحْل. ويُقال: دَوَّى الفَحْل تَدْوِيَةً، وذلك إذا سَمِعْتَ لهَدِيره دَوِيًّا). لسان العرب ٢/ ١٤٦٥ (د و ا).

(٤) اللغة بين القومية والعالمية، ص١٨٨.

(٥) معجم البلدان ٥/ ٩٨.

عظيمةٌ من جهة البريّة، كانت العربُ تجتمع فيها من الأقطار، ويتناشدون الأشعار، ويبيعون ويشترون)[١].

وقد كان لهذه السوق شأن عظيم، ولعل اختيارهم مكانها كان بسبب ما تمثله من أهمية لديهم، إذْ جعلوها (على الجهة الغربية من البصرة إلى البادية؛ ليكون أوَّلَ ما يَنْزلون إذا قصدوا البصرة، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها، ليقضوا فيه متاعًا، لهم ومرافق يتبلَّغون بها في ظَعْنهم وإقامتهم... وكان في الأصل سوقًا للإبل، حتى إذا كان عهد الأمويين صار سوقًا عامة، تتخذ فيه المجالس، ويخرج إليها الناس كل يوم، كُلٌّ إلى فريقه وحلقته وشاعره، وتتعدد فيه الحلقات، يتوسطها الشعراءُ والرُّجّازُ، ويؤمُّهَا الأشرافُ وسائرُ الناس، يتناشدون، ويتفاخرون، ويتهاجون، ويتشاورون... فالمِرْبَد معرض لكل قبيلة تعرض فيه شعرها ومفاخرها كما تعرض عروضها. وهو مجتمع العرب ومتحدثهم ومتنزه البصريين، يؤمه منهم من عاف رخاوة المدن. وما زال يعلو شأنه وتستجيب له أسباب الكمال، حتى اشتد ولوع الناس به، وارتيادهم له)[٢].

وصار المِرْبَدُ قبلةَ علماءِ اللغة، وشعراءِ العربية (فكان المِرْبَد يَعِجّ بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو، معهم محابرهم ودفاترهم يكتبون عن فصحاء الأعراب فيه... ويشبه المربد عكاظ في أمر الشعر وحلقاته، بل يزيد عليه، فلكل شاعر حلقة، ولكل مُتَهاجِيَيْن مجلسٌ، ولكل قبيلة نادٍ وشاعرٌ يذود عنها، ويردّ عدوان قريعه من القبيلة الثانية. فللعجاج ولرؤبة حلقة، ولأبي النجم العجلي حلقة، ولجرير والفرزدق وراعي الإبل وذي الرمة، لكل منهم حلقة... ويتفرد المِرْبَد بأمر علميّ محض لم يكن له في عكاظ من أثر، وهو أنه أرفد اللغة بمادة

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي ٤/ ٣٣٥.
(٢) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٣٥٦، ٣٥٧.

كثيرة، عليها أسس النحاة قواعدهم وأصلحوها، وذلك بما كانوا يقصدون له فصحاء الأعراب، يسألونهم فيما فيه يختلفون، ويأخذون عنهم مستفيدين ومتعلمين)[1].

وذكر أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) أنّ أَبا حُزابة (الوَليد بن حُنيفَة، أحد شعراء الدولة الأموية: ت٨٤هـ): استأذن عبد الله بن علي بن عبد العزيز – والي البصرة أيام الفتنة – أنْ يأتي البصرةَ فأذن له، فقَدِمَهَا، وكان الناسُ يَحْضُرون المِرْبَد، ويتناشدون الأشعار، ويتحادثون ساعة من النهار، فشهدهم أبو حُزابة، وأنشدهم مرثيةً في طلحة الطّلحات، يُضَمِّنها ذَمًّا لعبد الله بن عليّ، فغضب عَوْن بن عبد الرحمن بن سَلامة (وسلامة أمّه)، فأَمَرَ عونٌ ابْنَ أخٍ له، فَدَعَا أبا حُزابة فأطعمَه، وسقاه، وخَلَطَ في شرابه شيئًا أَسْهَلَهُ، فقام أبو حُزابة – وقد أخذه بَطْنه – فسَلَحَ على بابهم، وفي طريقه حَتَّى بَلَغَ أهلَه، ومرض أشهرًا، فلمّا عُوفي ركب فرسًا له وأتى المِرْبَد، فإذا عونُ بْنُ سلامةَ واقفٌ، فصاح به، فوقفَ، ولوْ لمْ يقفْ كان أخَفَّ لهجائه، فقال له أبو حُزابة:

يَا عَوْنُ قِفْ وَاسْتَمِعِ الْمَلامَهْ لَا سَلَّمَ اللهُ عَلَى سَلامَـــهْ

زِنْجِيَّةٍ تَحْسَبُهـــا نَعَـــامَـــهْ شَكَّاءَ شَانَ جِسْمَهَا دَمَامَـــهْ

...الخ الأبيات[2].

وكان الفرزدق (ت١١٠هـ) وجرير (ت١١٠هـ) يذهبان إلى المِرْبَد، ويعرضان فيه أشعارهما، وها هو ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) يذكر (ما

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٣٥٩: ٣٦١.

(٢) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ٢٢/ ١٨٢: ١٨٤. وقال عن أبي حُزابة: (وخرج مع ابن الأشعث "عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث: ت٨٤هـ" لما خرج على عبد الملك، وأظنه قُتِلَ معه، وكان شاعرًا، راجزًا، فصيحًا، خبيث اللسان، هَجَّاءً). وينظر: الوافي الوفيات ٢٧/ ٢٦٦، ٢٦٧.

حكاه الفرزدق عن نفسه قال: كنت أخرج أنا وجرير كلَّ يوم إلى المناقضة بالمِرْبَد، ويحضُرُنا وجوه أهل البصرة، وكنتُ أُرْسل كلَّ غداة إلى جرير عَيْنًا، فإذا لَبِسَ زِيًّا لَبِسْتُ أَحْسَنَ منه أو مِثْلَهُ، أُباهيه بذلك، فجاءني عَيْنِي عليه يومًا فأخبرني أنه في حُلَّة فاخرة، وَزِيٍّ من الرفاهية، وأنه على قَلُوص في مركب نبيل، ورَحْل ظاهر، فَسِرْتُ في مثل ذلك الزِّيِّ، وانتهيت إلى المِرْبَد فلم أجده، فلم يرعني إلا انقضاضُ فارسٍ قد اعتقل قناةً خَطِّيَّةً، وظَاهَرَ بين دِرْعَيْن، وتَقَنَّعَ بالحديد، فلم يظهر إلا عينه، وجاء حتى ركز قناته إلى جنبي، وأنا أشبه شيء بالهَدِيِّ[١] تُزَفُّ إلى بَعْلها، فإذا جريرٌ رافعٌ عقيرته ينشد:

أَعِدُّوا مَعَ الحَلْيِ المَلابَ فإنّما جريرٌ لَكُمْ بَعْلٌ وأنتم حَلائِلُهْ[٢]

فانصرف الناس بذلك البيت، وانصرفْتُ أَخْزَى مُنْصَرف)[٣]

ويقول صلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ): (وكان للرَّاعِي والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المِرْبَد)[٤].

وبعد سقوط دولة الأمويين وقيام دولة العباسيين استمرّ سوق المِرْبَد في أداء دوره في الحفاظ على اللغة العربية، فلم ينقطع هذا الدَوْر وذاك العطاء الوفير

---

(١) قال ابن منظور: (والهَدِيُّ والهِدِيَّةُ: العَرُوس). لسان العرب ٦/ ٤٦٤١ (هـ د ي).

(٢) قال ابن منظور: (والمَلابُ: ضَرْبٌ مِنَ الطِّيبِ). لسان العرب ٥/ ٤٠٩٢ (ل و ب).

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني ٦/ ٨٥١، تحقيق: د. إحسان عباس، ط٢، ١٩٨١م، الناشر: الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس. والبيت في ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٣/ ٩٦٩، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، ط٣، دار المعارف بمصر. وللقصة رواية أخرى شبيهة بتلك الرواية، في: شرح نقائض جرير والفرزدق ٣/ ٧٧٥، تحقيق: د. محمد إبراهيم حور، د. وليد محمود خالص، ط٢، ١٩٩٨م، منشورات المجمع الثقافي، ابو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

(٤) الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي ١٩/ ٢٨٣، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

بسقوط دولة الأمويِّين؛ فقد كان يذهب إليه العلماء لسماع اللغة من الأعراب، يروي الجاحظ عن أبي نُوَاس (ت١٩٨هـ) أنه قال: (بكرت إلى المِرْبَد، ومعي ألواحي، أطلب أعرابيًّا فصيحًا...)[١].

ويقول أبو منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ) عن النضر بن شُمَيْل (ت٢٠٦هـ): (وكَانَ يدخُل المِرْبَد، ويَلْقى الأعرابَ، ويستفيد من لغاتهم)[٢].

ويَصِفُ ياقوتُ الحمويُّ (ت٦٢٦هـ) الجاحظَ بأنه (تَلَقَّفَ الفصاحةَ من العرب شفاها بالمِرْبَد)[٣].

مما سبق يتبين لنا أنّ سوق المِرْبَد كان لها دورٌ عظيمٌ في الحفاظ على اللغة العربية، وتنمية الاعتزاز بها والانتماء إليها، وإلى أهلها، فقد جعل علماءُ اللغة من الأعراب حَكَمًا فَصْلًا فيما يجوز من اللغة وما لا يجوز، واحتكموا إليهم عند المنازعات، حيث عدُّوهم أهْلَ الفصاحة وأربابها، وأنهم الأحق بالحُكْم في مثل هذه الأحوال، من ذلك ما رواه أبو محمد اليزيدي (يحيى بن المبارك: ت٢٠٢هـ)، قال: كُنّا في مجلس أبي عمرو العلاء، فجاءه عيسى بن عمر الثقفي (١٤٩هـ) فقال: يا أبا عمرو، ما شيءٌ بلغني أنك تُجيزه؟ قال: وما هو؟ قال: بلغني أنك تجيز: ليس الطِّيبُ إلا المسكُ، بالرفع، فقال له أبو عمرو: هيهات، نِمْتَ وأَدْلَجَ الناسُ! ليس في الأرض حجازيّ إلا وهو ينصب، ولا في الأرض تميميّ إلا وهو يرفع، ثم قال لي أبو عمرو: تعال أنت يا يحيى، وقال لخلف الأحمر(ت: في حدود١٨٠هـ): تعال أنت يا خلف، امْضِيَا إلى أبي مَهْدِيَّة فَلَقِّنَاهُ الرَّفْعَ، فإنه يَأْبَى، وامْضِيَا إلى المُنْتَجع بْن نبهان التميمي، فَلَقِّنَاهُ النَّصْبَ

(١) الحيوان ٦/ ٤٤١.

(٢) تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري ١/ ١٧، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(٣) معجم الأدباء ٥/ ٢١٠١.

فإنه يَأْبَى، قال أبو محمد: فمضينا إلى أبي مَهْدِيَّة فوجدناه قائمًا يُصَلِّي، فلمّا قَضَى صلاته أَقْبَل علينا فقال: ما خطبكما؟ فقلتُ: جئناك لنسألك عن شيء من كلام العرب، قال: هاتياه، فقلنا: كيف تقول: ليس الطِّيبُ إلا المسكُ؟ فقال: أتأمراني بالكذب على كِبَرِ سِنِّي، فأين الزَّعْفران، وأين الجَادِيُّ، وأين بَنَّةُ الإبل الصّادرة؟ فقال له خَلَف: ليس الشرابُ إلا العسلُ، قال: فما تصنع سودان هجر، ما لَهُمْ غير هذا التمر، فلما رأيت ذلك قلت له: كيف تقول: ليس ملاك الأمر إلا طاعة اللَّه والعمل بها؟ فقال: هذا كلام لا دَخَلَ فيه، ليس ملاك الأمر إلا طاعةَ اللَّه والعملَ بها، فَنَصَبَ، فَلَقَّنَاهُ الرَّفْعَ فأَبَى، فَكَتَبْنَا ما سمعناه منه. ثم جئنا إلى المنتجع فقلنا له: كيف تقول: ليس الطِّيبُ إلا المسكَ؟ ونَصَبْنَا فقال: ليس الطِّيبُ إلا المسكُ، فَرَفَعَ، وجَهِدْنَا به أن يَنْصِبَ، فلمْ يَنْصِبْ. فرجعنا إلى أبي عمرو، وعنده عيسى بْن عمر لم يَبْرح بَعْدُ، فأَخْبَرْناه بما سَمِعْنَا، فأخرج عيسى خاتمه من يده، فدفعه إلى أبي عمرو، وقال: بهذا سُدْتَ النّاسَ يا أبا عمرو)[1].

ومن ذلك – أيضًا – ما حدث بين المُفَضَّل بن محمد الضَّبِّيّ (ت نحو: ١٦٨هـ) والأصمعيّ (ت٢١٦هـ)، حينما جَمَعَ بينهما سليمان بن على الهاشميّ بالبصرة فأنشد المُفَضَّل قولَ أوْس بن حَجَر:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا إنَّ الذى تَحْذَرِينَ قَـدْ وَقَعَـا

وَذَاتُ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بالماءِ تَوْلَبًا جَذِعَـا

ففطن الأصمعيّ لخطئه – وكان أحدث سِنًّا منه – فقال له: إنما هو «تولبا جذعا» فأراد تقريره على الخطأ، فلم يفطن المُفَضَّل لمراده، وقال: كذلك أنشدته، فقال الأصمعيّ: حينئذ أخطأت، إنما هو «تَوْلَبًا جَدِعَا» فقال المفضّل: «جذعا

(١) الأمالي، لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، ص٢٤١: ٢٤٣، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، الناشر: دار الجيل، بيروت.

جذعا»، ورفع صوته، فقال له الأصمعيّ: لو نفخت في الشّبّور ما نفعك، تكلّم كلام النمل وأصب، إنما هو «جَدِعَا» فقال له المُفَضَّل: ما الجَدِعُ؟ فقال سليمان الهاشميّ: اختارا من نجعله بينكما، فاتفقا على غلام من بنى أسد حافظ للشعر، فبعث سليمان إليه من أحضره، فعرضا عليه ما اختلفا فيه، فَصَدَّقَ الأصمعيَّ، وصَوَّبَ قَوْلَهُ. فقال له المُفَضَّل: وما الجَدِعُ؟ قال: السَّيِّئ الغذاء، يقال أَجْدَعَتْهُ أُمُّهُ: إذا أساءتْ غِذاءَهُ(١).

وما حدث بين سيبويه (ت١٨٠هـ) والكسائي (١٨٩هـ) فيما يُعْرف بالمسألة الزنبورية مشهور في كتب اللغة والتراجم(٢).

وذكر ابن النديم أسماء كثير من فصحاء العرب الذين كان لهم دور كبير في الحفاظ على اللغة العربية، منهم: أبو البَيْداء الرِّيَاحِيّ، وأبو مالك عمرو بن كَرْكَرَة، وأبو عِرار، وأبو زياد الكِلابيّ، وأبو سَوَّار الغَنَوِيّ، وأبو ثَوَّابَة الأسَدِيّ، وأبو خَيْرَة (نَهْشَل بن يزيد)، وأبو مَهْدِيَّة، وأبو مِسْحِل...الخ(٣).

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٣/ ٣٠٢، ٣٠٣. والبيتان في ديوان أوس بن حجر، ص٥٣، ٥٥، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م. وقال المحقق – نقلًا عن: المعاني الكبير–: النواشر: عَصَبُ الذّراع. والتَّوْلَبُ: أراد طفلها، وهو ولد الحمار. والجَدِعُ: السيئ الغذاء، تُصْمته بالماء لأنه ليس لها لبن من شدة الضر.

(٢) ينظر على سبيل المثال: مجالس العلماء، للزجاجي، ص٩، ١٠، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض، أمالي ابن الشجري ١/ ٣٤٨، ٣٤٩، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، ط١، ١٤١٣هـ ١٩٩١م، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات الأنباري ٢/ ٥٧٦، ٥٧٧، ط١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، الناشر: المكتبة العصرية، إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي ٣٥٨/٢، ٣٥٩.

(٣) ينظر: الفهرست، لابن النديم ١/ ٤٤ وما بعدها، تحقيق د. محمد عوني عبد الرءوف، د. إيمان السعيد جلال، سلسلة الذخائر (١٤٩) الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٥- تنشئة الأبناء على حبّ اللغة وإجادتها:

وكان العرب يحرصون على تنشئة أبنائهم على حُبِّ اللغة العربية وإجادتها؛ لذا كانوا يرسلونهم إلى أماكن الفصاحة، منذ نعومة أظفارهم، ومن المعلوم أنّ رسول الله ﷺ كان مُسْتَرْضَعًا في بنى سعد بن بكر بن هوازن(١)، ويشير الجاحظ إلى ذلك – في معرض حديثه عن فصاحة النبي ﷺ فيقول: (فكان النبيُّﷺ أَفْصَحَ العرب لسانًا، وأحسنهم بيانًا، وأسهلهم مخارج للكلام، وأكثرهم فوائد من المعاني؛ لأنه كان من جماهير العرب، مولده في بني هاشم، وأخواله من بني زهرة، ورضاعه في بني سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني أسد بن عبد العزى، ومهاجره إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار. وقد قال النبيُّ ﷺ: " أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر")(٢).

ويبدو أنّ هذا الأمر استمر رَدْحًا من الزّمن، حيث أُثِرَ عن الخلفاء الأمويين أنهم كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية حفاظًا على سلامة ألسنتهم من اللحن، يدلُّ على ذلك قول عبد الملك بن مروان: (أَضرَّ بالوليد حُبُّنَا له، فلم نُوَجّهْهُ إلى البادية)(٣)؛ وبسبب الاهتمام باللغة العربية (البدوية) ظلّ التحدث بها – في هذا العصر – سِمَةَ انتماءٍ إلى الطبقة الأرستقراطيّة الحاكمة، بينما كان التحدث بغير

---

(١) قال ابن قتيبة: (كان رسول الله– صلّى الله عليه وسلم– مُسْتَرْضَعًا في بنى سعد بن بكر بن هوازن). المعارف، لابن قتيبة، ص١٣١، تحقيق: ثروت عكاشة، ط٢، ١٩٩٢م، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(٢) رسائل الجاحظ ٤/ ٢٣٨. وحديث : (أنا أفصح العرب ...) قال عنه العجلوني: (أورده أصحاب الغرائب ولا يُعْلَمُ مَنْ أخرجه، ولا إسناده). كشف الخفاء ومزيل الإلباس، للعجلوني ١/ ٢٢٨، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، المكتبة العصرية.

(٣) البيان والتبيين، للجاحظ ٢/ ٢٠٥.

العربية مقتصرًا على تلك المجتمعات التي ضمّتها الدولة الإسلامية في العصر الأموي، وكان – في الوقت نفسه – سِمَةَ انتماءٍ إلى الطبقات الوسطى والدُّنْيا؛ لارتباطها – إنْ قليلًا أو كثيرًا – باللغات التي سادتْ تلك الأقاليمَ قبل الفتح الإسلاميّ[1].

وفي العصر العباسي لم ينقطع الاهتمام باللغة العربية والانتماء لها، والعمل الجاد من أجل رفع مكانتها والحفاظ عليها، لكن بسبب ما جَدَّ على المجتمع من حضارة لفتت الانتباه إليها، وجدنا (العباسيين أرادوا لأبنائهم اللغة البدوية وحياة الحضارة، فظهر الأعرابُ في قصور السّادة الجُدُد يُعَلِّمون اللغةَ، وهكذا اختلفت الصورة: كان الأبناء يُرْسَلون إلى البادية، فأصبح الأعرابُ يَفِدون إلى القصور يُعَلِّمون اللغةَ)[2].

٦- الرَّبْط بين اللغة العربية والدِّين الإسلامي:

ظلّ العرب محافظين على لغتهم، والعمل على توحيدها وسلامتها أصواتًا، وبنية، وتركيبًا، ودلالة، حتى أصبحت اللغة العربية – بذلك – مؤهلة لاستقبال كتاب الرسالة الخاتمة.

ولما جاء الإسلام شاءت إرادة الله – عز وجل – أن تكون معجزة نبيّ الإسلام ﷺ قرآنًا يُتْلى إلى يوم الدين، فنزل القرآن الكريم على قلب رسول اللهﷺ باللغة العربية، لغة قومه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِين. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢: ١٩٥]، فشَرُفت العربية به، وحفظها، ونَمَّاها، يقول ابن فارس

(١) ينظر: اللغة العربية عبر القرون، ص٤٧، ٤٨.

(٢) اللغة العربية عبر القرون، ص٥٢.

(٣٩٥هـ): (كَانَتْ العربُ فِي جاهليتها على إرْثٍ من إرث آبائهم فِي لُغاتهم وآدابهم ونَسَائكهم وقَرابينهم. فلما جاءَ الله – جلّ ثناؤه – بالإسلام حالتْ أَحْوَالٌ، ونُسِخَت دِيانات، وأُبْطلت أمورٌ، ونُقِلت من اللغة ألفاظٌ من مواضعَ إِلى مواضع أُخَر بزياداتٍ زِيدَتْ، وشرائع شُرِعت، وشرائط شُرِطت)[١].

وقد ارتبطت اللغة العربية بالدين الإسلامي ارتباطًا وثيقًا، فحلَّتْ حيثما حلَّ، لذا (عَظُمَ شأنُها، واكتسبت – فوق ما كان لها بين قومها من حُبٍّ واعتزاز وإيثار – الخلودَ الذي وَعَدَنَا به سبحانه في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩])[٢]، فكان الإسلام إذا دخل بلدًا تَعَرَّبَ أهْلُها، فقد حَلَّت اللغة العربية في بلاد الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب العربي محلَّ اللغات: الآرامية، والقبطية، والبربرية، وإذا لم تتعَرَّب الألسنة تمامًا تَعَرَّبت حروف الكتابة في لغاتها، وانتشرت كثير من الألفاظ العربية بين مفرداتها، كما حدث مع اللغتين: الفارسية، والتركية، بل وغيرهما، وقد اسْتَعْمَلَتِ الحروفَ العربيةَ – في الكتابة – سبعٌ وثلاثون لغة، منها ما هو أوربي وآسيوي وأفريقي، منها ما بقي إلى الآن، ومنها ما تم استبداله بالحروف اللاتينية، ويعود الفضل في ذلك إلى الإسلام؛ إذ جعل من الجنسية العربية انتماءً لغويًّا، وليس قومية عرقية، مما شجَّع أهل الأمصار على تعلم اللغة العربية وإجادتها، فأصبحوا بذلك عربًا لا تقلّ عروبتهم عن عرب الجزيرة[٣].

وأصاب الدكتور محمود فهمي حجازي كبد الحقيقة عندما أشار إلى العلاقة القوية بين اللغة والدين، فذهب إلى أنّ (عدم نجاح الدعوة إلى الكتابة بالعامية

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، ص٧٨، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

(٢) اللغة بين القومية والعالمية، ص١٧٦.

(٣) ينظر: أثر الإسلام في التوحيد اللغوي، د. خالد أحمد إسماعيل الأكوع ص١٧٤، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

يرجع إلى عوامل، منها: الالتقاء حول لغة القرآن الكريم، واللغةُ القبطيّةُ في مصر والسّريانيّةُ في مناطق الشام والعراق ارتبطتا بالصلاة الكنسية، وفوق هذا وذلك فقد مهَّدَ العامل الدينيّ لدخول عدد من الألفاظ المتعلقة بالدين والحضارة إلى لغات العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا، ففي هذه اللغات نجد الألفاظ الخاصة بالعبادات وبالسلوك اليومي للمسلم مثل: صلاة، زكاة، حرام، حلال، عيد، حج، مستعارة من العربية، وارتباط الخط العربي بالدين الإسلامي جعل المتحدثين باللغة الحبشية في هرر – وكلهم من المسلمين – يكتبون الحبشية بالخط العربي، ويُدْخلون فيها عددًا من الألفاظ العربية، **وكأنهم أرادوا أن يُثْبِتوا ارتباطهم بالعالم العربيّ الإسلاميّ وتميزهم عن الأحباش المسيحيين من حولهم)**[1].

وكان لبلاغة النبيّ ﷺ أثرٌ كبيرٌ في نمو اللغة العربية وازدهارها، والاعتزاز بالانتماء إليها، يقول الإمام الخطّابيّ (ت٣٨٨هـ): (إن الله – جَلَّ وعَزَّ – لما وَضَعَ رسوله موضع البلاغ من وَحْيه، ونَصَبَه مَنْصِب البيان لدينه، اختار له من اللغات أَعْرَبَها، ومن الأَلْسُن أَفْصَحَها وأَبْيَنَها ... ثم أَمَدَّه بجوامع الكَلِم التي جعلها رِدْءًا لنبوَّته، وعَلَمًا لرسالته؛ لينتظم في القليل منها عِلْمُ الكثير، فيسهل على السامعين حفظُه، ولا يؤودهم حَمْلُه)[2].

ويصف القاضي عِيَاض (ت٥٤٤هـ) فصاحةَ النبيّ ﷺ فيقول: (وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلّ الأفضل، والموضع الذى لا يُجْهَل، سلاسةَ طَبْعٍ، وبراعةَ مَنْزع، وإيجازَ مَقْطع، ونصاعةَ لفظ، وجزالةَ قول، وصحةَ معانٍ، وقِلّةَ تَكَلُّف، أوتى جوامعَ الكلم، وخُصَّ ببدائع الحِكَم، وعلم[3]

---

(١) اللغة العربية عبر القرون، د. محمود فهمي حجازي، ص١١.

(٢) غريب الحديث، للخطابي ٦٤/١، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، الناشر: دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٣) يجوز قراءتها بالبناء للمعلوم (وَعَلِمَ)، ويجوز قراءتها بالبناء للمجهول مع تشديد اللام (وَعُلِّمَ).

ألسنة العرب، فكان يخاطب كُلَّ أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها)[١]، فكان ﷺ تأتيه وفود العرب من شتى أنحاء الجزيرة العربية، فَيُخاطبهم ويُخاطبونه، حتى (قال له أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك! فقال: "وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين"، وقال مرة أخرى: "أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش، ونشأت في بني سعد" فَجُمِعَ له بذلك ﷺ قوّةُ عارضة البادية وجزالَتُها، ونصاعةُ ألفاظ الحاضرة ورَوْنَقُ كلامها، إلى التأييد الإلهيّ الذي مَدَدُهُ الوَحْيُ، الذي لا يُحيط بعلمه بَشَرِيّ)[٢].

ولم يقتصر أمر فصاحته ﷺ على ذلك، بل إنه مَدَّ اللغةَ بأساليب لم يَعْهدها العرب من قبل، حيث (تكلم بألفاظ اقتضبها لم تُسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، كقوله: (مات حتف أنفه)، وقوله: (حمي الوطيس)، وقوله في المسلم والكافر: (لا تراءى ناراهما). في ألفاظ ذات عدد من هذا الباب تجري مجرى الأمثال، وقد يدخل في هذا النوع إحداثُه الأسماءَ الشرعية)[٣].

٧- الرَّبْط بين اللغة العربية وسلامة العقيدة الإسلامية:

وقد أدرك علماؤنا القدامى أهمية اللغة العربية في الحفاظ على سلامة العقيدة الإسلامية من الانحراف؛ لذا وجدناهم يربطون بين العلم باللغة والدين، بل يجعلونه الدِّيَن بعينه، فقد رُوِيَ أن أبا عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) كان يقول: (لَعِلْمُ العربيةِ هو الدِّينُ بعينه، فبلغ ذلك عَبْدَ الله بن المبارك فقال: صَدَقَ؛ لأني

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، ص٧٠، دار الفكر بيروت لبنان، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص٨٠.

(٣) غريب الحديث، للخطابي ٦٥/١، ٦٦، وينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص٧٩، ٨٠.

رأيت النصارى قد عَبَدُوا المسيحَ لجهلهم بذلك، قال الله تعالى: أنا وَلَّدْتُكَ مِنْ مَرْيَمَ، وأنت نَبِيِّي، فحسبوه يقول: أنا وَلَدْتُكَ، وأنت بُنَيِّي، فبتخفيف اللام وتقديم الباء وتعويض الضمة بالفتحة، كَفَرُوا)[1]، وحدث أبو صالح الهروي قال: كان عبد الله بن المبارك (ت١٨١هـ) يقول: أنفقتُ في الحديث أربعين ألفًا، وفي الأدب ستين ألفًا، ولَيْتَ ما أنفقتُهُ في الحديث أنفقتُهُ في الأدب، قيل له: كيف؟ قال: لأنّ النصارى كَفَرُوا بتشديدة واحدة خَفَّفُوها، قال تعالى: يا عيسى، إني وَلَّدْتُكَ مِنْ عذراء بتول، فقال النصارى: وَلَدْتُكَ)[2].

ومن هنا نفهم بعضًا من سِرِّ عناية العلماء باللغة العربية، وجعلها وسيلة لفهم القرآن الكريم، والوقوف على إعجازه، يقول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ): (وإنما يعرفُ فَضْلَ القرآن مَنْ كَثُرَ نظرُه، واتّسع علمُه، وفهم مذاهبَ العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمّةٌ أُوتيت – من العارِضَة، والبيان، واتساع المجال – ما أُوتِيَتْهُ العربُ، خِصِّيصَى من الله)[3].

٨- العمل على سلامتها من اللحن:

بلغت عناية النبيّ ﷺ بالفصحى مرتبة سامية، فهي اللغة التي اختارها الله – تعالى – لكتابه الكريم، لذا حرص المصطفى ﷺ على التزام أصحابه بها، ولما لَحَنَ أحدهم في حضرته، أوصى صحابته الكرام بتعليمه وَتَعَهُّدِهِ ورعايته، حتى لا يلحن مرَّة أخرى، وكأنه ﷺ يعطينا درسًا في الانتماء للغة العربية، لغة القرآن الكريم، والانتماء إلى مَنْ يتحدثون بهذه اللغة، يتضح ذلك مما رواه الحاكم

(١) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي ١/ ١٠، تحقيق: د. إحسان عباس، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٢) معجم الأدباء ١/ ١٩.

(٣) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص١٢.

وصححه عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – قال: سمع النبيُّ ﷺ رجلاً قرأ فلحن، فقال رسول الله ﷺ: (أَرْشِدُوا أخاكم)(١).

ومِنْ ثَمَّ كانت هذه العبارة تعليمًا للصحابة أجمعين، وبيانًا لقيمة الانتماء إلى اللغة العربية، والمحافظة عليها؛ لذا وجدنا الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم أجمعين – حريصين عليها أشدّ الحرص وأَوْفاه، فقد رُوي عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قوله: (لأن أقرأ فَأُسْقِط أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ فألْحَن)(٢)، ومَرَّ عُمَرُ بن الخطاب – رضي الله عنه – بقوم رَمَوْا فأساؤوا الرَّمْيَ، فقال لهم: (بِئْسَ مَا رَمَيْتُم)، فقالوا: إنّا قومٌ مُتَعلمين. فقال: (والله لخطؤكم في كلامكم أشدُّ من خطئكم في رَمْيكم، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (رَحِمَ الله امرءًا أصلح مِنْ لسانه)(٣).

٩- الترغيب في تَعَلُّمها وتَعْلِيمها:

كان سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يَحُثُّ على تَعَلُّم العربية، والمحافظة عليها، لما لذلك من أثر محمود على عقل المرء ومروءته، وذلك فيما رُوي عنه من قوله: (تعلموا العربيةَ فإنها تُشَبِّبُ العقلَ، وتزيد في المروءة)(٤).

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري ٤٧٧/٢ برقم (٣٦٤٣).

(٢) مراتب النحويين ص٥، ونسبه أبو القاسم الزجاجي إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وفيه: (لأن أقرأ فأخطئ أحبُّ إليّ من أن أقرأ فألحن؛ لأني إذا أخطأت رجعت، وإذا لحنت افتريت). ينظر: الإيضاح في علل النحو، للزجاجي، ص٩٦، تحقيق د. مازن المبارك – ط – الثالثة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م – دار النفائس – بيروت.

(٣) ينظر: الإيضاح في علل النحو ص٩٦، والأضداد، لابن الأنباري، ص٢٤٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م. ورواه الخطابي موقوفًا على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ينظر: غريب الحديث، للخطابي ٦٠/١.

(٤) طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الزبيدي، ص١٢. وينظر: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، لأبي بكر الأنباري ١/ ٣١، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٠هـ ١٩٧١م. والرواية هناك: (تُثَبِّتُ).

كما رُوي عنه – أيضًا – أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه –: (أنْ مُرْ مَنْ قِبَلَكَ بتَعَلُّم العربيةَ؛ فإنها تدل على صواب الكلام، وَمُرْهُم برواية الشِّعْر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق)[١].

وفَقِهَ سلفُنا الصالحُ – رضوان الله عليهم أجمعين – وصية سيدنا عمر – رضي الله تعالى عنه –؛ لذا وجدناهم يربطون بين اللغة والدين، فالانتماء للعربية انتماء لرسول الإسلام ﷺ، وانتماء للدين الإسلامي نفسه، قيل للحسن البصري (ت١١٠هـ) في قوم يتعلمون العربية، فقال: أَحْسَنُوا، يتعلمون لغةَ نبيِّهم ﷺ[٢]، وعن يحيى بْنِ عَتِيق قال: سألتُ الحسن قلت: يا أبا سعيد الرجلُ يتعلم العربيةَ يلتمسُ بها حُسْن المنطق، وَيُقِيم بها قراءته، فقال: حَسَنٌ يا بُنَيّ فَتَعَلَّمْها؛ فإن الرجلَ يقرأ الآيةَ فَيَعْيَا بوجهها فيهلِك فيها[٣].

وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز (ت١٠١هـ) حريصًا على الإكثار من سماع الفصحى ممن يُحْسنونها، نفهم ذلك من قوله: (ما كلمني رجلٌ من بني أسد إلا تَمَنَّيْتُ أن يُمَدّ له في حجته حتى يَكْثُرَ كلامُه فأسمعَه)[٤].

ويرى سلفنا الصالحُ – رضي الله عنهم – أن تعلم العربية يرفع من قيمة الرجل بين الناس، قال ابن شُبْرُمَة (ت١٤٤هـ): (إذا سرَّك أنْ تعْظُم في عين مَنْ كنتَ في عينه صغيرًا، ويَصْغُر في عينك مَنْ كان في عينك عظيمًا فَتَعَلَّم العربيةَ؛ فإنها تُجْريك على المنطق، وتُدْنيك من السلطان)[٥]، ويَرْوِي الكسائي

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٣١.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/٢٧.

(٤) البيان والتبيين ١/ ١٧٤.

(٥) عيون الأخبار، لابن قتيبة ٢/ ١٥٧، قدم هذه الطبعة الدكتور عبد الحكيم راضي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة: الذخائر، ٢٠٠٣م. وينظر: إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٣٢.

(ت١٨٩هـ) عن أبي الدينار ما يؤكد هذا المعنى، حيث يقول: تَعَلَّم العربيةَ؛ فإنها هي المروءةُ الظاهرة، وهي تُرَتِّب الوَضيعَ مراتبَ الأشراف[١]؛ لذا عابوا العِيّ، وحذّروا منه، يقول يونس بن حبيب: (ليس لعَيِيٍّ مُرُوءَةٌ، ولا لمنقوصِ البيانِ بَهَاءٌ، ولو بَلَغَ يَأْفُوخُه أعْنانَ السماء)[٢]، ويَرْوِي أبو عبد الله بْنُ الأعرابيّ (ت٢٣١هـ) فيقول: قال رجلٌ لِبَنِيه: يا بَنِيَّ، أصْلحوا ألسنتكم؛ فإن الرجل تنوبه النائبةُ يُحِبّ أنْ يَتَجَمَّل فيها فيستعير من أخيه دابَّتَهُ وثَوْبَهُ، ولا يجد مَنْ يُعِيره لسانَه[٣].

كما أشاروا إلى أهمية العلم باللغة العربية من أجل فهم القرآن الكريم، والوقوف على معانيه؛ لذا كان الزهري (ت١٢٣ أو ١٢٤هـ) يرى أن الجهل باللغة العربية يعوق عن فهم القرآن الكريم، فيقول: (إنما أخطأَ الناسُ في كثير من تأويل القرآن؛ لجهلهم بلغة العرب)[٤]، وكان أيُّوب السِّخْتِيَانيّ (ت١٣١هـ) يُحَذِّر من الجهل باللغة العربية، ويرى أنه قد يقود صاحبه إلى الزَّنْدَقة، والعياذ بالله تعالى؛ لذا كان يقول: (عامة مَنْ تَزَنْدَقَ بالعراق لقلّة عِلْمهم بالعربية)[٥].

أما مالك بن أَنَس (ت١٧٩هـ) فكان يرى أهمية العلم بلهجات العرب لمَنْ يريد أن يتعرض لتفسير القرآن الكريم، فيَقُولُ: (أَلَا أُوتَى برجُلٍ غيرِ عالِمٍ بلُغاتِ العرب يُفَسِّرُ ذلك إلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا)[٦]، وقوله: (يُفَسِّرُ ذلك)، أي: يُفَسِّرُ كتابَ اللَّه[٧].

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٥، ٤٦.
(٢) عيون الأخبار ٢/ ١٧٥.
(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٥٠.
(٤) الزينة، لأبي حاتم الرازي ١/ ١١٦،١١٧.
(٥) الزينة، لأبي حاتم الرازي ١/١١٧.
(٦) شعب الإيمان، للبيهقي ٣/ ٥٤٣ (٢٠٩٠)، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية، بومباي، الهند.
(٧) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٦٠.

وهذا يوضح لنا صحة ما ذهب إليه أبو بكر الزُّبَيْدِيّ (ت٣٧٩هـ) عندما قال: (ولم تزل الأئمة من الصحابة الراشدين ومَن تلاهم من التابعين، يحضُّون على تعلُّم العربية وحفظها، والرعاية لمعانيها؛ إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، فبها أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها بلَّغ رسولُه – عليه السلام– وظائفَ طاعته، وشرائع أمره ونهيه. وكذلك كانوا يحضُّون على رواية الشعر الذي هو حكمة العرب في جاهليَّتها وإسلامها، وديوانها الذي أقامته مقام الكِتَاب لما تقدَّم من مآثرها وأيامها، فكانوا يتناشدونه في مجالسهم، ويتذاكرونه عند محافلهم)[١].

وقد بلغت العناية باللغة العربية – تعليمًا وتَعَلُّمًا – هذا المبلغ العظيم لمكانتها من الدين، فالعلم باللغة العربية على درجة كبيرة من الأهمية؛ فهو (خادمٌ للكتاب المـُنَزَّل، وكلام النَّبيّ المرسل ﷺ، وعونٌ على فهمهما، ومعرفة ما أُمِرَ به أوْ نُهِيَ عنه الثَّقَلان منهما)[٢].

١٠– الاحتجاج بما قيل بها شِعْرًا ونثرًا في تفسير القرآن الكريم:

ومن عناية الصحابة الكرام باللغة العربية، وإدراكِهِم لقيمتها، أنهم كانوا يَحْتَجُّونَ بها – شِعْرًا ونَثْرًا – في تفسير القرآن الكريم، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: (كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ حتى أتاني أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصمان في بِئْرٍ، فقال أحدُهُما: أنا فَطَرْتُهَا، يقول: أنا ابْتَدَأْتُهَا)[٣].

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الزبيدي، ص١٢.

(٢) ينظر: الخصائص، لابن جني ١/ ١٩٠.

(٣) فضائل القرآن، لأبي عُبيد القاسم بن سلام، ص٣٤٥، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت.

وعنه – أيضًا – أنه قال: (ما كنتُ أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] حتى سمعْتُ ابْنةَ ذِي يَزَنَ الحمْيَرِيّ وهي تقول: أُفَاتِحُكَ، يَعْنِي: أُقَاضِيكَ)[١].

ومن المعلوم المشهور عن ابن عباس – رضي الله عنهما – الاحتجاجُ بالشعر على غريب القرآن الكريم، ومسائلُه مع نافع ابن الأزرق معلومةٌ مشهورةٌ[٢]، ولا عجب في ذلك فهو القائل: (إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشِّعْر؛ فإنّ الشِّعْر ديوانُ العرب)[٣]، وقال أيضًا: (الشعر ديوان العرب، فإذا خفي عليهم الحرفُ من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعوا إلى ديوانها فالتمسوا معرفة ذلك منه)[٤]، وقال: (إذا أعْيَتْكُمُ العربيةُ في القرآن فالتمسوها في الشِّعْر فإنه ديوانُ العرب)[٥].

ومما سبق يتضح لنا صحةُ ما ذهب إليه أبو بكر الأنباري (ت٣٢٨هـ) عندما قال: (وجاء عن أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكِلِه باللغة والشِّعْر، ما بَيَّنَ صِحَّةَ مذهب النحويين في ذلك، وَأَوْضَحَ فَسادَ مذهب من أنكر ذلك عليهم)[٦].

١١- تعريب الدواوين:

اهتم الأمويون باللغة العربية، وعملوا على رفع مكانتها، وإعلاء شأنها، إيماناً منهم بأنّ اللغة هي (التي تجذب قومًا من الناس بعضهم إلى بعض،

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ١/ ٢٩٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ٥٥ وما بعدها، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٦٢/١. وينظر: الإتقان، للسيوطي ٢/ ٥٥.

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ١٠٠/١، ١٠١. وينظر: الإتقان، للسيوطي ٢/ ٥٥.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٠١.

(٦) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٦١.

وتجعلهم يشعرون بشعور واحد، ويُحِسُّون بكيانهم وتَمَيُّزهم عن غيرهم)[1]؛ لذا عَرَّبوا الدواوين من الفارسية والرومية والقبطية إلى العربية، رغبة منهم في صبغ الدولة بالصبغة العربية الخالصة، وهذا دليل على انتمائهم للغتهم وعروبتهم، فأشاعوا بين المسلمين – عَرَبًا وأعاجم – حُبَّ العربية، والإقبالَ على تَعْلِيمِها وتَعَلُّمِها؛ ولذا وجدنا (العرب الذين نزحوا إلى الأمصار قد اعْتَزُّوا بلغتهم إلى أبعد حدود الاعتزاز، ورَأَوْا فيها الفصاحةَ كلّ الفصاحة، وكان الرجل منهم يَقاس مركزه الاجتماعي على قَدْر إجادته لها، وحُسْن نُطْقه لأصواتها.

١٢- التضحية بالغالي والنفيس من أجل جمعها:

ومن مظاهر الانتماء للغة العربية: ما قام به علماء العربية من التضحية بالغالي والنفيس من أجل جمعها والحفاظ عليها، حيث ضَحّوا براحتهم في سبيل النهوض بها، وتركوا الأهلَ والدّيارَ لجمع مفرداتها، فلما انتشر اللحنُ على الألسنة نزلوا البوادي، وشافهوا الأعراب، وحفظوا عنهم ما سمعوه، كما أضافوا إلى الحفظ التدوينَ، وكان ذلك حرصًا منهم على سلامة اللغة العربية، ودَفْع ما عساه أنْ يَشِينها، فالكسائي (ت ١٨٩هـ) – مثلاً – سأل الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) قائلا: من أين أخذتَ علمك هذا؟ قال له: من بوادي الحجاز ونجد وتِهَامة، فخرج الكسائي إلى البادية، ثم رجع بعد أن أنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة سوى ما حفظ.[2]

ولم ينفرد الخليلُ والكسائيُّ بالخروج إلى البادية لسماع اللغة من الأعراب، فقد حرص كثير من علماء العربية القدامى على ذلك، ومِنْ أشهرهم: عبد الملك بن قُرَيْب الأصمعيّ (ت٢١٥هـ وقيل: ٢١٦هـ) الذي قال عنه الإمام الذهبي

---

(١) اللغة بين القومية والعالمية، ص١١٩.

(٢) ينظر: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للخطيب البغدادي ٤٠٤/١١ – ط – دار الكتاب العربي – بيروت.

(ت٧٤٨هـ): (كَتَبَ شيئًا لا يُحْصَى عن العرب، وكان ذا حِفْظٍ، وذكاءٍ، ولُطْفِ عبارة، فَسَادَ)[١].

ومما رواه الأصمعي عن نفسه أنه قال: سمعتُ صِبْيَةً بِحِمَى ضَرِيَّة[٢] يتراجزون، فوقفتُ، وصَدُّوني عن حاجتي، وأقبلتُ أكتبُ ما أسمعُ، إذْ أَقْبَلَ شيخٌ فقال: أتكتبُ كلامَ هؤلاء الأقْزام الأدْناع؟)[٣].

ومما يُلْحق بذلك، عناية علماء العربية بوضع قواعدها حفاظًا عليها، وقد بذلوا في سبيل ذلك جهودًا جبّارةً، دون كَلَلٍ أوْ ملَل؛ لذا (استطاعوا بكدِّهم وجِدِّهم وصفاء قرائحهم أن يَضعوا للُّغة سوارًا أشدَّ من الصُّلب مِرَّةً، بحيث تَقصُر عنها هجَمات الشُّعوبيِّين وأهل العُجْمة، فحفِظوا بذلك هيكل اللُّغة صافيًا ومَوردَها عَذبًا غير مُدنَّسٍ بأكدار الدَّخيل من لغات الشعوب التي اختلطتْ بالعرب بعدَ القرن الثالث الهجري)[٤].

وكان من حرصهم على اللغة واعتزازهم بها أنهم عَدُّوا كُلَّ عربيٍّ لم تتغير لغته فصيحًا، فلم ينزعوا عنه صفة الفصاحة، يقول أبو العباس محمد بن يزيد،

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٠/ ١٨٠، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط٣، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة.

(٢) قال ياقوت الحموي: (فأما حِمَى ضَرِيَّة فهو أشْهَرُها وأسْيَرُها ذِكْرًا، وهو كان حِمَى كُلَيْب بن وائل، فيما زعم لي بعض أهل بادية طيّء، قال: ذلك مشهور عندنا بالبادية، يرويه كابرنا عن كابر) معجم البلدان ٢/ ٣٠٨ (الحِمَى). وقال في موطن آخر: (ضَرِيَّة: أرْضٌ بنجد، ويُنْسَب إليها حِمَى ضَرِيَّة، ينزلها حاجُّ البصرة، لها ذِكْرٌ في أيّام العرب وأشعارهم).معجم البلدان ٣/ ٤٥٧ (ضَرِيَّةُ).

(٣) المزهر ١/ ١٤٠. وقال ابن منظور: (رَجُلٌ دَنِعٌ: فَسْلٌ لَا لُبَّ لَهُ وَلَا خَير فِيهِ. والدَّنَعُ: الذُّلُّ... ودَنِعَ دَنَعًا: لَؤُمَ... ابْنُ شُمَيْلٍ: دَنِعَ الصَّبِيُّ إِذا جُهِدَ وجاعَ واشْتَهى. ابْنُ بُزُرْجٍ: دَنِعَ ورَثِعَ: إِذا طَمِعَ). لسان العرب ٢/ ١٤٣٢ (د ن ع).

(٤) تجديد العربية بحيث تصبح وافية بمطالب العلوم والفنون، إسماعيل مظهر، ص٨، الناشر مؤسسة هنداوي، يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، المملكة المتحدة، ٢٠٢٠م.

المعروف بالمُبَرِّد (ت ٢٨٥هـ): (وكُلٌّ عربيّ لم تتغيّر لغته فصيحٌ على مذهب قومه، وإنما يُقال: بنو فلان أفصحُ من بنى فلان، أيْ: أَشْبَهُ لُغَةً بلغةِ القرآن ولغةِ قريش، على أنَّ القرآنَ نَزَلَ بكلِّ لغات العرب)[١]، وقال ابنُ خالويه (ت٣٧٠هـ): (قد أجمع الناسُ جميعًا، أنّ اللغة إذا وَرَدت في القرآن فهي أفصحُ مما في غير القرآن، لا خلافَ في ذلك)[٢].

وما فعله علماء اللغة العربية يُنْبِئ عن معرفتهم بقيمتها، وأهميتها في بناء الحضارة الإنسانية عمومًا، والإسلامية على وجه الخصوص، ذلك (أن الفَيْصَل في قيمة اللغة هو تراثها، وما تحمله من حضارة وعلم يفيد الحاضر، ويبني المستقبل، فأبناء اللغة هم الذين يرفعون قيمتها، أو يقللون من شأنها، لا بتفانيهم في تقريظها، بل بعلمهم الحضاري، وبتأليفهم بها).[٣].

فوائد الانتماء إلى اللغة العربية:

وكان لهذا الاهتمام باللغة العربية، والانتماء لها – بعد الإسلام خاصة – فوائد عديدة، لعل من أهمها:

١– انتشارُها في الشام، ومصر، وبلاد المغرب العربي، وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون، وأنها قضت على اللغات: الآرامية، والقِبْطِيّة، والبَرْبَرِيَّة وغيرها، وظل العربُ دَهْرًا من الزّمن محافظين على لغتهم، غيورين عليها، يبذلون من أوقاتهم وأعمارهم لإعلاء شأنها، ورِفْعة مكانتها.

٢– استمرارها حتى يومنا هذا، فلم تمت كما مات غيرها من اللغات، وهذا يرجع – أوَّلًا – إلى تحقيق وعْد الله – عز وجلّ – الذي وعَدَ به في قوله

(١) الفاضل، للمبرد، ص١١٣، ط٣، ١٤٢١هـ، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة.
(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ١/ ٢١٣.
(٣) اللغة العربية عبر القرون، ص١٣.

تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وحَفْظ الذِّكْر يستلزم حِفْظَ اللغة لتي نزل بها.

٣- قدرتها على مواكبة العصور، في كلّ نهضة علمية؛ لِمَا تمتلكه من ثروة لفظية، وهي: (عبارة عن الألفاظ التي تمتلكها اللغة للتعبير عن المحسوسات والمعنويات الموجودة بالفعل، وإمكانية الاستفادة من هذه الثروة في التعبير عمَّا يُستجدّ في واقع الحياة بالوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الغرض، مما يجعل اللغةَ قادرةً على مواكبة العصر)[١]، وقد تحقق للغة العربية هذا الثراء منذ العصر الجاهلي، ولمّا جاء الإسلامُ زادت ثراءً على ثراء، وعبَّرَتْ عن حاجات المجتمع الجديد بعد الإسلام، ولم تقف عاجزة أمام التطور الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربيّ، ولم تقف كذلك عاجزة أمام النَّقْلَة الحضارية التي حدثت في العصر العباسي على وجه الخصوص، واستوعبت علوم الفرس واليونان والهنود وغيرهم، وذلك عندما عَمَدَ المسلمون إلى ترجمة ما استطاعوا ترجمته من تراث هذه الأمم، وصارت اللغة العربية – بذلك – (الوعاء الحقيقيّ لكلّ ثقافة أو ديانة أو حضارة عرفها العالم القديم تقريبًا)[٢].

وقد أشار الجاحظ إلى بعض مظاهر مواكبة اللغة العربية للنهضة العلمية التي حدثت بعد الإسلام عمومًا، وفي العصر العباسي على وجه الخصوص، فبدأ حديثه عن ألفاظ المُتكلِّمين، ثُمّ ببعض ما فعله الخليل بن أحمد في علم العروض،

---

(١) جهود المحدثين في تنمية الثروة اللفظية، محمد حسن جبل (ت١٤٣٦هـ) نموذجًا، د. محمد موسى جباره، ص٥٢٩، بحث منشور في مجلة آفاق، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية، العدد الثالث، ١٤٣٨هـ ٢٠١٦م.

(٢) في فقه اللغة، د. عبد العزيز أحمد علام، د. عبد الله ربيع محمود ص١٤٨، ط ١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ثم تحدث عن النحويين، وختم حديثة بأهل الحساب، فقال: (وهم تخيروا تلك الألفاظَ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماءَ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسْمٌ، فصاروا في ذلك سَلَفًا لكلّ خَلَفٍ، وقدوةً لكل تابع. ولذلك قالوا: العَرَض والجَوْهر، وأَيْس وليس، وفَرَّقوا بين البُطْلان والتَّلاشي، وذكروا الهذيَّة والهُوِيَّة وأشْباهَ ذلك. وكما وضع الخليلُ بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابًا لم تكن العربُ تتعارفُ تلك الأعاريضَ بتلك الألقاب، وتلك الأوزانَ بتلك الأسماء، كما ذكر الطويلَ، والبسيطَ والمديدَ، والوافرَ، والكاملَ، وأشْباهَ ذلك، وكما ذكر الأوتادَ والأسبابَ، والخَرْمَ والزِّحافَ... وكما سَمَّى النحويون، فذكروا الحالَ والظُّروفَ وما أشْبَهَ ذلك؛ لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريفَ القَرَوِيِّينَ وأبناءِ البَلَدِيِّينَ عِلْمَ العروض والنحو. وكذلك أصحابُ الحسابِ قد اجتلبوا أسماءً جعلوها علاماتٍ للتَّفاهُم)[1].

وما زالت اللغة العربية تمتلك الميزات التي جعلتها – قديمًا – قادرة على استيعاب ما جَدّ في حياة العرب، ويذكر الدكتور علي عبد الواحد وافي بعض مميزات اللغة العربية التي جعلتها أعظمَ اللغات كفايةً، وأكْثَرَها مرونةً، وأقْدَرَها على التعبير عن مختلف فنون القول، من هذه الميزات: دِقَّةُ قواعدها النحوية، وغزارةُ مفرداتها، وخصبُ مناهجها في الاشتقاق، وقياسيّةُ أوزانها، واختصاصُ كثير من هذه الأوزان بالدلالة على معانٍ مُعَيَّنَةٍ، وسَعَةُ صدرها حيال التعريب والمجاز والكناية والنَّقْل، وشدَّةُ حرصها على جمال الأسلوب وبلاغة العبارة، وتوخيها الوصول إلى الغرض من أقرب الطرق وأكثرها ملاءمة لمقتضيات الأحوال[2].

---

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩، ١٤٠.

(٢) ينظر: فقه اللغة، د. على عبد الواحد وافي ص١٨٥، ط٣، ٢٠٠٤م، نهضة مصر.

أثر ضعف الانتماء إلى اللغة:

ثم دار الزَّمنُ دَوْرَته، فوجدت العربيةُ من بعض أهلها جُحُودًا ونُكْرانًا، أشار إليه جمال الدين ابْنُ منظور (ت ٧١١هـ) عندما ذكر سَبَبَ تأليفه معجم (لسان العرب)، فتحدَّث حديث المُتَحَسِّر على ما آلتْ إليه اللغةُ العربيةُ على ألسنة أبنائها، وما آل إليه أهْلُها من انصرافٍ عنها، وفَرَحٍ بغيرها، فقال: (فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة ... وذلك لِمَا رأيته قد غَلَبَ في هذا الأَوَان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللَّحْنُ[1] في الكلام يُعَدُّ لَحْنًا مَرْدودًا، وصار النُّطْقُ بالعربية من المعايب مَعْدودًا، وتنافَسَ الناسُ في تصانيف التَّرْجُمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير العربية، فجمعتُ هذا الكتاب في زَمَنٍ أهلُه بغير لغته يَفْخرون، وصَنَعْتُهُ كما صنع نوحٌ الفُلْكَ وقومُه منه يَسْخرون)[2].

كما تَحَدَّثَ ابْنُ خلدون (ت ٨٠٨هـ) عن الأمر نفسه، وعن الارتباط الوثيق بين عِزَّة الأمة وعِزَّة لغتها، وكأنه يشير إلى أهمية الانتماء إلى اللغة والدِّين والدَّوْلة، وذلك عندما تَحَدَّثَ عن لغات أهل الأمصار، وأنها تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالِبين عليها، أو المُخْتطِّين لها، وأنّ اللسان العربي فسدتْ مَلَكَتُهُ، وتَغَيَّرَ إعرابُه بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأعجمية، وأنه مع ذلك بقي في الدلالات على أصله، وسُمِّي لسانًا حَضَرِيًّا في جميع أمصار الإسلام، ثم قال: ولَمَّا تَمَلَّكَ العَجَمُ من الدَّيْلَم والسَّلَجُوقيّة بعدهم بالمشرق، وزِنَاتَةُ والبَرْبَرُ

---

(١) لَحَنَ الرّجلُ يَلْحَنُ لَحْنًا: تكلَّمَ بلُغته، ولَحَنَ له يَلْحَنُ لَحْنًا: قال له قولاً يفهمه عنه ويخفى على غيره، واللَّحَنُ- بفتح الحاء، ويرى ابن الأعرابي أنها بالسكون-: الفِطْنَةُ، ولَحِنَ لَحَنًا: فَطِنَ لِحُجَّته وانتبه لها، واللَّحْن:التعريض والإيماء. ينظر: لسان العرب، لابن منظور٤٠١٣/٥، ٤٠١٤ (ل ح ن).

(٢) لسان العرب، لابن منظور ١٣/١- ط- دار المعارف بمصر.

بالمغرب، وصار لهم المُلْكُ والاستيلاءُ على جميع الممالك الإسلامية، فَسَدَ اللسانُ العربيّ لذلك، وكاد يذهب، لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذَيْن بهما حِفْظُ الدِّينِ، وصار ذلك مُرَجِّحًا لبقاء اللغة العربية المُضَرِيّة من الشِّعر والكلام إلا قليلًا بالأمصار، فلما مَلَكَ التَّتَرُ والمغول بالمشرق – ولم يكونوا على دين الإسلام – ذهب ذلك المرجِّح، وفسدت اللغة العربية على الإطلاق، ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشِّعر والكلام إلا قليلًا يقع تعليمه صناعيًّا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب، وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك، وربما بقيت اللغةُ العربيةُ المُضَرِيَّةُ بمصر والشام والأندلس والمغرب؛ لبقاء الدِّين طَلَبًا لها، فانحفظت بعض الشيء، وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له أَثَرٌ ولا عَيْنٌ، حتى إنّ كُتُبَ العلوم صارت تُكْتَبُ باللسان العَجَمِيّ، وكذا تَدْريسُهُ في المجالس(١).

لكن رغم ما أصاب اللغة العربية في بعض الأزمنة، فإنّ الله – عزّ وجلّ – قَيَّضَ للغة القرآن الكريم مَنْ يحافظ عليها، ويعمل جاهدًا على رفعة شأنها، فما خلا عصرٌ من العصور من مثل هؤلاء، حتى جاء العصر الحديث فوجدنا ما يُعْرف في ميدان الدراسات الأدبية باسم: مدرسة البَعْث والإحياء، ويُعَدُّ محمود سامي البارودي (ت١٣٢٢هـ ١٩٠٤م) رائد هذه المدرسة، ومن أشهر شعرائها: أحمد شوقي (ت١٣٥١هـ ١٩٣٢م)، وحافظ إبراهيم (ت١٣٥١هـ ١٩٣٢م)، وأحمد محرم (ت١٣٦٤هـ ١٩٤٥م)، وعلي الجارم (١٣٦٨هـ ١٩٤٩م)، وكثير غيرهم.

---

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون ٨٢٨/٢: ٨٣٠، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، الناشر: دار نهضة مصر، طبعة خاصة ضمن مشروع مكتبة الأسرة، ٢٠٠٦م.

كما بَرَزَ كُتَّابٌ أخذوا على عاتقهم إعادة مَجْد الفصحى، من هؤلاء: مصطفى لطفي المنفلوطي (١٣٤٢هـ ١٩٢٤م)، ومصطفى صادق الرافعي (١٣٥٦هـ ١٩٣٧م)، وعباس محمود العقاد (ت١٣٨٣هـ ١٩٦٤م)، وأحمد حسن الزيات (ت١٣٨٨هـ ١٩٦٨م)، وطه حسين (١٣٩٣هـ ١٩٧٣م) وكثير غيرهم.

وظهر جيلٌ من المحققين الأفذاذ، الذين قاموا بتحقيق أمهات كتب التفسير، والحديث، والأدب، واللغة، والطبقات والتراجم وغير ذلك، من هؤلاء: أحمد محمد شاكر (ت١٣٧٧هـ ١٩٥٨م)، ومحمد محيي الدين عبد الحميد (ت١٣٩٢هـ ١٩٧٢م)، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (١٣٩٢هـ ١٩٨٠م)، وعبد السلام محمد هارون (١٤٠٨هـ ١٩٨٨م)، والسيد أحمد صقر (ت١٤١٠هـ ١٩٨٩م)، ومحمود محمد شاكر (ت١٤١٨هـ ١٩٩٧م)، والدكتور محمود محمد الطناحي (١٤١٩هـ ١٩٩٩م)، وكثير غيرهم، حيث عملوا – بتحقيقاتهم – على إعادة مَجْد اللغة العربية مرةً أخرى، بإتاحة أَنْفَسِ ما كتبه علماؤنا القدامى، ليكون بين يدي طلاب العلم والمعرفة، فينهلوا منه، لتَجُودَ قرائحُهُم، ويَطَّلعوا على صفحاتٍ مُشْرقة من صفحات تاريخ العربية المجيد، فيعود إلى نفوسهم الاعتزازُ بها، وحُبُّ الانتماء إليها، يقول ماكس نورداو Max Nordau: (إنّ الفرد يندمج في المجتمع باللغة، وبها وحدها، باللغة يصبح عضوًا في الشّعب الذي يتكلمها، وباللغة وحدها يتلقى كُلَّ التراث الفكري والشعوريّ والأخلاقيّ والاجتماعيّ للأمة، سواء منه ما انحدر عن قرائح الكُتّاب والشعراء والمفكرين، السالفين أو المعاصرين)[1].

وصَدَقَ هردر Herder عندما قال: (إنّ اللغةَ القوميةَ بمنزلة الوعاء الذي تَتَشكّل به، وتُحْفظ فيه، وتَنْتقل بواسطته أفكارُ الشَّعب...إنّ لغة الآباء والأجداد

(١) اللغة بين القومية والعالمية، ص١٠٧.

بمثابة مستودع لكلّ ما للشَّعب من ذخائر الفكر، والتقاليد، والفلسفة، والدِّين، إنّ قَلْبَ الشّعب ينبض في لغته، إنّ روح الشّعب يكمن في لغة الآباء والأجداد)[1].

ويقول أيضًا: (وهل لشعبٍ ما – حتى لو كان شعبًا جاهلًا مُتخلِّفًا – ثروةٌ أثمن من لغة أجداده؟!)[2].

وما يزال الأملُ معقودًا على الغيورين من علماء العربية الأفذاذ، وشعرائها المجيدين، وكُتَّابها المُبْدعين، ليعملوا على تنمية الشعور بالانتماء للعربية، وللكِتاب الذي نزل بها – القرآن الكريم–، كي تعودَ الأمَّةُ إلى سالف عهدها المجيد، وتَحْمِلَ رايةَ العلم والدِّين في العالمين، وتَسُودَ كما سادَتْ من قَبْلُ، وما ذلك على الله بعزيز.

(١) اللغة بين القومية والعالمية، ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) اللغة بين القومية والعالمية، ص١٠٥.

الخاتمـــة

بعد هذا العرض الموجز، يمكننا استخلاص بعض النتائج، من أهمها:

- ما زالت الحاجة ماسّة إلى الكشف عن طفولة اللغة العربية، لنتعرف على طبيعتها ونقف على أهم خصائصها في تلك المرحلة.
- وجدت اللغة العربية من أبنائها – في العصر الجاهلي وما تلاه حتى العصر العباسي – انتماءً صادقًا، قائمًا على حبها والدفاع عنها، فَعَلَا شأنها وشأنهم، وارتفعت مكانتها ومكانتهم.
- مواكبة اللغة العربية لمَا جَدّ بعد الإسلام من حضارة راقية، وما تبع ذلك من تدوين العلوم، كان له أسباب عديدة، منها ما يعود إلى ما تمتاز به اللغة، ومنها ما يعود إلى الانتماء لها، وقد ظهر ذلك جليًّا في ثنايا البحث.
- لما ضَعُفَ الانتماءُ إلى اللغة ضَعُفَ أهْلُهَا، لكن قَيَّضَ اللهُ – عَزَّ وجَلَّ – مَنْ عَمِلَ على إعادة مجدها وعزّها، ولعل هذا نتيجة وَعْدِ الله – عز وجل – بحفظ كتابه الكريم.
- الانتماء للدِّين، أو اللغة، أو الوطن، خُلُقٌ من أخلاق الإسلام الحميدة، التي ينبغي أنْ نتمسَّك بها، ونحافظ عليها.

التوصيات:

- أوصي بأن يقوم مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتكليف لجنة علمية بكتابة تاريخ اللغة العربية منذ وصلتنا إلى عصرنا الحاضر، لتكون وثيقة علمية لتاريخ اللغة العربية وما مرت به من قوة وضعف، وأثر ذلك كله على اللغة وعلى أهلها.
- كما أوصي الباحثين في اللغة العربية بالكتابة في بيان أثر اللغة العربية على النهضة الإسلامية، لبيان خصائص اللغة العربية، ومميزاتها، التي جعلتها قادرة على مواكبة هذه النهضة بما اشتملت عليه من الجديد في ميادين: العقيدة، والتشريع، والعلوم النظرية والتطبيقية، والترجمة...الخ.

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٢- أثر الإسلام في التوحيد اللغوي، د. خالد أحمد إسماعيل الأكوع، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٣- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغاني، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م.

٤- الأضداد، لابن الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٥- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق د. إحسان عباس، د. إبراهيم السعافين، بكر عباس، ط٣، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، دار صادر، بيروت.

٦- الأمالي، لأبي علي القالي ٢/ ٥٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

٧- الأمالي، لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٢، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، الناشر: دار الجيل، بيروت.

٨- أمالي ابن الشجري، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، ط١، ١٤١٣هـ ١٩٩١م، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.

٩- إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٢م، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

١٠- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات الأنباري، ط١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، الناشر: المكتبة العصرية.

١١- الإيضاح في علل النحو، للزجاجي، تحقيق د. مازن المبارك – ط – الثالثة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م – دار النفائس – بيروت.

١٢- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، لأبي بكر الأنباري، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.

١٣- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

١٤- تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت.

١٥- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للخطيب البغدادي، ط، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٦- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، تحقيق: السيد صقر، ط٢، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٧- تجديد العربية بحيث تصبح وافية بمطالب العلوم والفنون، إسماعيل مظهر، الناشر مؤسسة هنداوي، يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، المملكة المتحدة، ٢٠٢٠م.

١٨- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

١٩- جمهرة اللغة، لابن دريد، تحقيق: د. رمزي منير بعلبكي، ط١، ١٩٨٧م، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

٢٠- جهود المحدثين في تنمية الثروة اللفظية، محمد حسن جبل (ت١٤٣٦هـ) نموذجًا، د. محمد موسى جباره، بحث منشور في مجلة آفاق، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية، العدد الثالث، ١٤٣٨هـ ٢٠١٦م.

٢١- الحيوان، للجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، تقديم أ.د. أحمد فؤاد باشا، سلسلة الذخائر (٧٤)، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٢٢- الخصائص، لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط٣، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٣- دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، ط١٢، ١٩٨٩م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

٢٤- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، ط ٥، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٢٥- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ط٥، ٢٠٠٤م، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٦- ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٢٧- ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٣/ ٩٦٩، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، ط٣، دار المعارف بمصر.

٢٨- ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه الدكتور/ واضح الصمد، ط١، ١٩٩٨م، دار صادر، بيروت.

٢٩- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني، تحقيق: د. إحسان عباس، ط٢، ١٩٨١م، الناشر: الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس.

٣٠- رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

٣١- الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازي، تحقيق : حسين بن فيض الله الهمداني، مطابع دار الكتاب العربي، ١٩٥٧م.

٣٢- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط٣، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة.

٣٣- شرح المعلقات السبع، للزوزني، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، دار احياء التراث العربي.

٣٤- شرح نقائض جرير والفرزدق ٣/ ٧٧٥، تحقيق: د. محمد إبراهيم حور، د. وليد محمود خالص، ط٢، ١٩٩٨م، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

٣٥- شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية، بومباي، الهند.

٣٦- الشعراء الجاهليون الأوائل، د. عادل الفريجات، دار المشرق، بيروت.

٣٧- شعر المسيب بن علس، جمعه وحققه ودرسه الدكتور أنور أبو سويلم، منشورات جامعة مؤتة ١٩٩٤م.

٣٨- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، دار الفكر بيروت لبنان، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

٣٩- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٤٠- صبح الأعشى، للقلقشندي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ٢٠٠٤م/ ٢٠٠٥م، (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية).

٤١- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سَلّام الجُمَحِيّ، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة.

٤٢- طبقات النحويين واللغويين، لأبي بكر الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، الناشر: دار المعارف، مصر.

٤٣- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، دار الجيل، بيروت.

٤٤- عيون الأخبار، لابن قتيبة، قدم هذه الطبعة الدكتور عبد الحكيم راضي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة: الذخائر، ٢٠٠٣م.

٤٥- غريب الحديث، للخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، الناشر: دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٤٦- الفاضل، للمبرد، ط٣، ١٤٢١هـ، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة.

٤٧- فضائل القرآن، لأبي عُبيد القاسم بن سلام، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت.

٤٨- فقه اللغة، د. على عبد الواحد وافي، ط٣، ٢٠٠٤م، نهضة مصر.

٤٩- الفهرست، لابن النديم، تحقيق د. محمد عوني عبد الرءوف، د. إيمان السعيد جلال، سلسلة الذخائر (١٤٩) الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٥٠- في فقه اللغة، د. عبد العزيز أحمد علام، د. عبد الله ربيع محمود، ط ١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٥١- الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الفكر العربي، القاهرة.

٥٢- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

٥٣- كشف الخفاء ومزيل الإلباس، للعجلوني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، المكتبة العصرية.

٥٤- لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، مصر.

٥٥- اللغة بين القومية والعالمية، د. إبراهيم أنيس، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠م.

٥٦- اللغة العربية عبر القرون، د. محمود فهمي حجازي، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهر، ١٩٧٨م.

٥٧- مجالس العلماء، للزجاجي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض.

٥٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت. دار الفكر.

٥٩- المعارف، لابن قتيبة، تحقيق: ثروت عكاشة، ط٢، ١٩٩٢م، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٦٠- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي، تحقيق: د. إحسان عباس، ط١، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٦١- معجم البلدان، لياقوت الحموي، ط٢، ١٩٩٥م، دار صادر، بيروت.

٦٢- مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٦٣- مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، الناشر: دار نهضة مصر، طبعة خاصة ضمن مشروع مكتبة الأسرة، ٢٠٠٦م.

٦٤- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
١	ملخص البحث
٢	المقدمة
٣	تعريف الانتماء
٤	مظاهر الانتماء إلى اللغة العربية
٥	فوائد الانتماء إلى اللغة العربية
٦	الخاتمة
٩	ثبت المصادر والمراجع
١٠	فهرس الموضوعات